كَفر داوُود

رواية

نشوى سعيد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : كَفر داوُود
المؤلفه : نشوى سعيد
تصنيف الكتاب : رواية
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٤٤٧ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 2 - 601 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

لأجللكِ ..

رسمت حرفى

بحبر حبى

ونقشت حبكِ فى عمق قلبى

يا من أنتِ فى الحياة حياة

وإليكِ ينحنى الحرف حبًا وامتنان

إليكِ أمى .. نبع الحنان

الفصل الأول

تطلع إليها وهى جالسة جواره لا تفعل شيئًا سوى متابعة الطريق الزراعى من نافذة القطار باسمة ، فتاة العشرين ربيعًا لم يرَ لحسنها مثيلًا في أى فتاة أخرى ؛ شعرها فاحم السواد غطت نصفه بحجاب كحلى اللون يعكس الضوء على عينيها العسليتين البراقتين فبدتا جوهرتين فى سهل جليدي ، بشرتها بيضاء ذات حمرة متناغمة طبيعية ، اتخذ ثغرها شكل ثمرة كرز ناضجة.

زفر دخان لفافة تبغه ونظر أمامه للا شئ ، تلمس بيده اليمنى التى تعانق لفافة التبغ يده الأخرى فاصطدمت أصابعه بدبلة زواجه منها فاقشعر بدنه وانتصب شعر رأسه ، أغمض عينيه وعاد بذاكرته إسبوع قبل ذلك .

* * * * * *

قابله صديقه وأنبأه بالبشرى؛ لقد وجد له الزوجة التى يتمناها، هكذا اتفقا أن يسافرا معًا إلى قريتها، عرف بعدها أنها ليست قرية بل أصغر فى المساحة وعدد السكان.

كانا قد ركبا القطار واستقلا بعدها عربة صغيرة تحمل اثنى عشر راكبًا. بعد أن هبطا منها وسارا فى أرض يابسة تحيطها أرض زراعية قسمت عدة أماكن للتنويع بين الزراعات ، كانت المحاصيل باهتة وأرضها جافة ، قدر أنها قد زرعت جميعها جرجيرًا أو برسيمًا . اصطفت المنازل البسيطة المبنية بالطين الجاف جوار بعضها مكونة صفين كشارع اتسع مسافة رجل نائم . سارا وسط فضول أعين الفلاحين والأطفال البائسين ، اختلطت فى أنفه رائحة الماشية برائحة سخونة أشعة الشمس على الحشائش .

اقترب منه طفل لم يتعد طولُه حتى ركبته وهو يضحك .. قفز أمامه فرحًا، وهو يصفق بيديه، بدا له كأنه يرحب به فى قريته على طريقته الطفولية ، تخطاه بعد أن داعب شعره المبعثر وسار بجانب صديقه الذى يرشده إلى بيت عروسه المرتقبة وهو يحاول السير متجنبًا النتوءات والمنحدرات الصغيرة . بدت القرية فى عينيه أصغر وأبسط مكان يتواجد به أحد ، لمح على مقربة من المزروعات مسجدًا صغيرًا

وجواره ما يشبه الضريح، غطى معظمه بأقمشة بيضاء نظيفة شذت عن الجو العام الرمادى حوله .

- هناك .

قالها صديقه وهو يشير بيده إلى أحد البيوت المصطفة والذى وقف أمام بابه رجل يرتدى جلبابًا أبيض حال لونه للرمادي .

- تفضلا .. لقد شرفتما كفر داوود .

كان قد علم مسبقًا أن عمرها لم يتعد العشرين؛ والدتها متوفاة، وأن عمتها قد تولت رعايتها طيلة طفولتها، والدها كما هو الحال فى تلك القرية الصغيرة يعمل مزارعًا ؛ كما أنها ليس لها أخوات .

كان الوضع بالداخل أفضل كثيرًا من الخارج، بمجرد دخولهما من باب البيت حتى وجدا نفسيهما داخل حجرة صغيرة لا سقف لها، أرضيتها هى نفس أرض القرية المتعرجة لكنها مكسوة بحصرٍ ملونٍ بطول وعرض الحجرة، التي حوت مصاطب مفروشة للجلوس .

- صديقى "سعد" .

هكذا قدمه صديقه لوالد عروسه القادمة. ابتسم سعد على استحياء بينما برزت ذقنه المربعة الحليقة مع ابتسامته فى وجهه الطفولى

الدائرى . لم يكن أحد يستطيع أن يصفه بالوسامة كما لم يجرؤ أحد بوصفه بالقبح كان شابًا عاديًا ذا قامة متوسطة وجسد نحيل نوعًا .

رد والدها : - أهلًا أهلًا .. لقد جاءنا السعد بقدومك. ضحك ثلاثتهم على مزحته الواهنة . كان والدها رجلًا خمسينيا رفيع القد ، بدا وجهه كجزءًا من ذلك المكان ؛ امتلأ بنتوءات ومنحدرات أرض الكفر.عندما كفَّ الجميع عن الضحك التمثيلى قال صديقه :

- سعد صديقى من أيام الدراسة ، الجميع يشهد له بالأخلاق وحسن المعشر .
- نعم الرجال . هكذا جامله والدها .

- سعد يعمل فى مكتب السجل المدني ، موظف حكومي راتبه جيد ولديه منزلٌ ورثه عن والده .

ابتسم الأب وكذلك سعد بينما أكمل صديقه :

- لقد بحث طويلًا عن ابنة الحلال حتى علمنا أنها مختبئة عندك يا حاج . قالها وضحك ثم سأل : - فما رأيك ؟

ضحك الرجل وأردف مجددًا : نعم الرجال .

هكذا لم يتبق شئ سوى أن يرَها .

بمجرد أن دخلت تحمل صينية الشربات وقف سعد لا احترامًا لدخولها، ولكن لشدة دهشته من جمالها ، حتى قال على الفور :

- بسم الله ماشاء الله .

قال والدها : - ضعي الصينية واذهبى يا بدرية.

الحُسن هو بدرية ، البدر ليلة اكتماله هو بدرية . هكذا جلس وهو على أتم استعداد لوصف جمالها طيلة الليل .

بعدها اتفق الطرفان على كل شئ، سيتم الزواج بالقرية وسيظلا بها أسبوعين حتى ترحل معه إلى شقته بالمدينة مكان عمله ، ستحضر معها فقط حقيبة ملابسها. لم يطلب منه والدها شبكة ذهبية أو مهرًا، فقط دبلة صغيرة أحضرها معه تحسبًا لإتمام الزفاف .

هكذا تم عقد القران وسط فرحة أهالى الكفر ، ومباركة عائلتها . لم يسأل عنه أحد ولم يحضر عقد القران أحد من أسرته سوى صديقه شوقي الذى عرَّفه عليهم .

بعد أن أتم المأذون عمله ترك الجميع الزوجين معًا . كان منبهرا بجمالها الأخَّاذ .. لقد تزوج الآن الحُسنَ كله ، لقد هبط القمر من مكانه وجلس أمامه تلك اللحظة .

- هل تعلمين معنى اسم بدرية ؟ قالها لها وهو سكرانُ بجمالها لا يرفع عينه عنها .

استمرت فى النظر لأسفل وقالت : - لا .

- إنه مشتق من البدر، أيْ اكتمال الجمال .

ابتسمت وأشاحت بوجهها بعيدًا .

عندها أدرك انه قد حصل لتوه على كل ما يرجوه، زوجة جميلة بسيطة خجولة لم تطلها الأيدى أو تقتحمها العيون ، نشأت فى قرية لا همَّ لها سوى الزراعة وقوت اليوم، لا شئ من مطالب أهل المدن فى مراسم الزفاف وتجهيز بيت الزوجية .

قدر أن الزفاف سيكون فى اليوم التالى ، ستقيمه عائلتها أمام بيتها ، لم يكن عليه أى واجبات سوى حلاقة ذقنه وتهذيب شعره .

جلس صديقه جواره فى حين ذهب الحلاق لشأن له بعيدًا عنهما .

قال له صديقه : - مبارك عليك ... لقد تزوجت ابنة جني حقيقية .

نظر له سعد وعيناه تحمل عتاب الدنيا كلها فالآن يتحدث عن زوجته . قال له مدعيًا المداعبة :

- هذِّبْ ألفاظك يا شوقى، إنك تتحدث الآن عن زوجتي .

اختفت الابتسامة من وجهه وقال موضحًا ما قد فهمه سعد بالخطأ :

- لا .. لم أقصد مغازلة يا صديقى ؛ قصدت فقط ما يقوله الناس .

رمقه سعد باستغراب محاولًا الفهم :

- ما الذى يقوله الناس ؟

داعب صديقه بضع شعيرات أعلى أذنه أمام المرآة وأردف :

- تلك الشائعات عن بنات تلك القرية .

عندما سمع سعد ذلك اعتدل فى جلسته بينما أردف صديقه:

- ما يقال عن جمال بنات كفر داوود .. والسبب من ورائه .

هز سعد رأسه يمينًا ويسارًا وقال :

- مازلت لا أفهم .
- حسنًا سأوضح لك .. يقال إن تلك القرية ملعونة ... عندما تتزوج فتاة منها يعاشرها جنى معاشرة الأزواج فتلدن فتيات حسناوات لا يتغير جمالهن على مَرِّ الزمان ، فيشيخ أزواجهن ويظللن شاباتٍ بحسن دائم وجمال شيطاني لا يتأثر بالزمان .

انتفض قلب سعد عندما أنهى صديقه كلامه فى حين أخفى خوفه برسم ابتسامة مضللة تحجب رغبته فى الفرار فزعًا وقال :

- شائعة مضحكة .
- أو لا تكون ... مبارك عليك .

قالها " شوقى " ثم ذهب وتركه يتردد كلامه فى أذنه مرات ومرات . أشعل لفافة تبغ محاولًا استيعاب ما سمعه للتو ، لكنه تذكر ضحكة صديقه وهو يغادر منذ قليل كان كمن أوقعه فى حفرة عميقة عن قصد بعدها يضحك لوجود ثعبان جواره بتلك الحفرة . ثم عاد لما قاله عن تلك الشائعة .. أهى شائعة حقا ؟؟ تذكر زوجته التى عقد قرانه عليها فقط منذ سويعات قليلة وأدرك أن جمالها لم يره من قبل ، لكنه لم يلحظ أى فتاة أخرى بالقرية ، فجأة لمع ضوء ساطع بداخل عقله .. تذكر عمتها .. رآها وقت عقد القران وصافحته ، تذكر كأنه يراها أمامه الآن .. فائقة الجمال كانت ؛ وهو ما جال بخاطره عندما باركت له الزواج حينها .

ترك صالون الحلاقة الصغير كالملسوع من جمرات الجحيم ، وخرج باحثًا عن أي صبية أو امرأة عله يرى شيئًا من القباحة تنفى ما قاله صديقه له . قادته قدماه إلى ما يشبه المقهى بين الأشجار ، جلس بها الرجال بجلاليب باهتة وعيون نائمة ، خُيِّلَ له أنهم يحملون همًا يفوق

همه تلك اللحظة ، وأتى له صبى يسأله ماذا سيشرب فطلب شايًا ، لاحظ - رغم كربه - أن بعض الجالسين ينظرون له ؛ بل البعض قد أشار نحوه وهو يحدث آخر ، نظر أمامه فوجد بعض الأطفال يتقافزون أمامه كالضفادع، جميعهم صبية بجلاليب مهترئة ووجوههم حملت أتربة جبل رملي بأكمله ، جرت خلفهم فتاة صغيرة بجديلتين طويلتين وعيون خضراء واسعة .

- ابنة جني حقيقية .

تذكر جملة صاحبه فانتفض. لم يجرؤ على سؤال أحد ممن حوله عما سمعه ، شعر بالحرج لمجرد التفكير فى الأمر ، القرية صغيرة بحق ومن الواضح أن جميعهم يعرفون بعضهم جيدًا، ويعرفون أنه الغريب الذى أتى من العاصمة ليحمل ابنتهم بعيدًا بشائعتها ؛ ربما حمل معها ذلك الجنيَّ الذى سيشاركه بها ، لاحظ أن الوهن الذى رآه فى وجه والدها هو ذاته نفس نظرة هؤلاء الرجال حوله ، ربما تؤكد تلك السمات كلام صديقه، هؤلاء الرجال قد ارتضوا بذلك الحال رغمًا عنهم ، الشيطان الذى يعتلي زوجاتهم ولا يستطيعون ردعه ، يغتصبهن وهن فى أحضانهم ، لو كان رجلًا يراه أمامه لقتله ، أمَّا ذلك .. انتفض جسده من أفكاره تلك فازدادت دقات قلبه اضطرابًا فى حين لمح رجلين ذابلي الأعين يلوح أحدهما له بالسلام فرفع سعد يده

وبادله التحية ، ودَّ حينها لو يذهب ويجلس معهما ويسألهما عن حقيقة ما سمع :

- السلام عليكم هل هناك جني يعاشر زوجاتكم ليلًا معكم وينجبن فتيات حسناوات دائمات الحسن والجمال ؟
- نعم .
- حسناً أشكركما .

هكذا تخيل تلك المحادثة الهزلية معهما . فكر أنه من الوارد أن يكون حديث صديقه مجرد دعابة قاسية ، لكن لحقته فكرة أن لو كان الأمر صحيحًا ماذا سيكون الحال حينئذ؟! هكذا إذن انتهى الأمر لغير صالحه فلقد تمَّ الزواج بالفعل وما هى إلا سويعات قليلة وتُزَّفُ عليه . شرب آخر جزء من الشاى الساخن وقال فى نفسه :

- كم أحتاجك الآن يا أمى!

* * * * * *

كان عرسًا بسيطًا لم يتوقعه ، لم يكن هناك طلقات نيران فرحة بالزفاف ، لم يكن هناك ذلك الرجل الذى يرقص فوق جواد ، لم تكن هناك الراقصات الغجريات ولا المطرب الذى يشدو بين الرجال ، حتى

أنه لم يتم الفصل بين الرجال والنساء كبقية القرى التى يسمع عنها . فقط أجلساهما فى مقعدين أشبه بمقاعد المقهى التى جلس عليها بالظهيرة ، وأضاءوا بضع مصابيح ملونة واهية لم تستطع أن تخفي جمال النساء الجالسات ، فقط ارتدى والدها جلبابًا أزرق اللون ورسم على وجهه ابتسامة حزينة ، لم يستطع سعد أن يركز جيدًا فيما يعزفه بعض الصبية ويتغنون به .. كانت أغانٍ خاصة بالزفاف على أية حال .. من يأبه ؟ !

راودته فكرة أن أحد الشياطين سيزف اليوم أيضًا إلى امرأته فانتفض وشعر بوخذ فى مؤخرة رأسه .. ماذا لو كان ذلك العفريت يجلس بينهما الآن ؟ ! ماذا لو أتت الآن طائرة وانتشلته من جانب عروسه ومن بين الموجودين جميعهم فينسى كل ذلك فى لحظة .

*****كتبوا كتابك يا نقاوة عينى*****

دارت عيناه بين الجالسين فلم يلمح صديقه .

- ذلك الوغد .. أين ذهب ؟ ! قالها فى نفسه ضاغطًا على أسنانه . نظر لها جواره فى توجس فوجدها قد غطت وجهها بوشاح أبيض شفاف ، وارتدت فستان زفاف أبيض حال لونه إلى لون السكر ليعلن

أنه كان فى يوم من الأيام ناصع البياض لكنه صمد أمام عوامل الدهر ذلك لأنه كان عضوًا بارزًا فى كل زفاف لبنات الكفر، لم يكشف ذلك الفستان أى جزء من جسدها حتى عيناها كانتا قد طمست قليلًا خلف ذلك الوشاح . هنا تطوعت طفلة بالرقص أمامهما فتبعتها زميلاتها الصغيرات الحسناوات بجمال شيطانى رجيم ، وأخذن يتمايلن ويقفزن بشئ من البراءة مدعين مقدرتهن العالية فى الرقص مرتدين أثوابًا بيضاء قدر أنها قد فصلت خصيصًا لمراسم الزفاف فى الكفر ، تخيل حينها أنهن يرقصن على قبره ويزفون عروسه إلى قرينها . فجأة شق الطريق بين الأطفال شابٌ بجلباب يحمل بيده كاميرا فوتوغرافية عتيقة الطراز ويحاول أن يبعد أى شخص خلافهما ليلتقط صورة الزفاف ، ظل واقفًا أمامهما فترة يحاول ضبط مكان التصوير فى حين تجمدت ابتسامة سعد المخادعة خلال ذلك الوقت حتى انطلق صوت التقاط الصورة .

انتهت مراسم الزفاف التى لم تستمر أكثر من ساعتين فقط ، بدت له كأنها عشر ساعات من النواح على رجولته الضائعة فى أيدى شيطان مريد ينتظر لحظة انقضاضه على عروسه الحسناء حفيدة الجان .

زفوهما إلى بيت والدها الذى تطوع بالمبيت فى بيت أخته ، كانوا قد أعدوا حجرتهما جيدًا لتلك الليلة وقاموا بتغيير الأفرشة والحُصر وأضاءوا الشمعات الملونة عوضًا عن مصابيح الكيروسين .

أغلقوا وراءهم الباب فانصرف الجمع صامتين ، وقف أمامها وأزاح الوشاح وألقاه خلف رأسها فوجد وجهًا كالقمر حتى أغمض عينيه من شدة ضيائه ووجد نفسه يقول فى سره مستعيذًا : - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

لم يكن يتوقع أنه عند زواجه من فتاة فاتنة لتلك الدرجة وبهذا الحسن سيستعيذ بالله من جمالها لحظة خلوه بها . قبلها على جبينها ثم استدار جهة الفراش وخلع جاكيت البذلة وربطة العنق والقميص واستلقى على الفراش وغط فجأة فى نوم عميق .

كانت عروسه مستلقية على الفراش، لم ير ما ترتديه جيدًا فقط وجد كيانًا أسود اللون فوقها .. كان يفترسها لكنها بدت له مستمتعة ، لم يتبين ملامح ذلك الكيان ، هجم عليه بكل ما أوتى من قوة وشجاعة ، قذف نفسه قذفًا على ذلك الجاثم فوقها ينقذها

.. ينقذ زوجته وكرامته ، جذبه .. فالتفت إليه رآى وجهه ففزع مما رآه كان وجه صديقه شوقى ينظر إليه ويبتسم بينما لا زال جاثمًا على زوجته ، تبدلت الابتسامة إلى ضحكات ، أخذ يضحك ويضحك، اختلط ضحكه بصوت آخر .. نظر لامرأته فوجدها تنظر له وتضحك هى الأخرى ، امتزجت الضحكات معًا فبدت صرخات صمَّت أذنيه . ألقى نفسه بعيدًا عنهما وهو يضع يديه على أذنيه فارتمى فى الأرض واقعًا، فرأى طفلة راقصة بثوب زفاف طفولى شحب لونه الأبيض فصار رماديًا ، كانت ترقص أمامه بظهرها .. التفتت إليه ليرى وجهها الفاتن لكنها بمجرد أن استدارت له حال وجهها إلى وجه أفعى ضخمة فتحت فاها بعنف واستطال لسان مشقوق بين أنياب دامية بينما كانت تُصدر حفيفًا رهيبَ الصوت استعدادًا لقضم رأسه .

هنا أفاق من كابوسه ، شعر بجفاف حلقه وبمرارة معدته الفارغة التى صعدت لفمه .

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

باغتته عروسه الجديدة وقالت : - خيرًا إن شاء الله ؟!

نظر لها وتذكر كل شئ ؛ تذكر ليلته الغائمة المعالم ، تذكر غيبوبته التى ذاب فيها فور دخوله تلك الغرفة .

- صباح الخير .

قالتها بهدوء واستحياء . كانت ترتدي روب أحمر اللون مليئًا بالدانتيل، كشف عن زراعيها الممتلئتين نوعًا وغطى الكثير مما أظهره قميص النوم الذى ارتدته أسفله ، انساب شعرها الفاحم السواد شديد النعومة خلف ظهرها حتى بدا كقطعة من سماء فى ليلة عديمة القمر .

- لم تتناول عشاءك أمس .

قالتها وهى تنظر إلى الطبلية الخشبية التى غُطت بمفرش كاروهات .

- حقاً لم أتناول عشائى . قالها مؤكدًا ثم حدث نفسه ساخرًا :

- ولم يتناول أحدهم عشاءه أيضًا. قطعت هواجسه عندما قالت وهى تشير نحو الطعام المغطى :

- **هل ستفطر ؟**
- **نعم .**

قام من الفراش وجلس على الأرض وأزاح الغطاء عن دجاجتين محمرتين فى وسط الطبلية حولهما الأرز والمكرونة وصينية صغيرة تحوي لحمًا مسلوقًا . مد يده وشرع يأكل كما لم يأكل بحياته من قبل . عندما وجدها جالسة لا تمد يدها للطعام قال لها:

- **ماذا كان شكل والدتك؟**

- **كانت كالبدر .. الله يرحمها .**

- **بل يرحم والدك .**

لم تفهم ما يعنيه ، بينما تردد قبل أن يقول :

- هل صحيح ما يقولون عن النساء فى قريتكم ؟

نظرت له وقالت مبتسمة هادئة :

- هل سمعت شئ ؟

ظن أن سؤالها هذا يعد ردًا كافيًا على كل شكوكه . بينما أجاب :

- القليل .

قالت محتفظة بذات الابتسامة : - كلها ادِّعاءات وافتراءات من أهل الكفور والنجوع المجاورة .

حمل ردُّها دفاعًا مستميتًا على بنات جنسها . أخذ يمضغ اللحم المسلوق وهو يفكر : - هل الجان المغتصب هذا مقصور فقط على تواجده بكفر داوود ؟! أم سيغادر معها متى غادرت ؟ تساءل لكنه لم يكن يعلم لمن يلجأ وممن يتأكد ، تناول قطعة لحم أخرى وفكر : لما يبقيان هنا أسبوعين ؟! أخذ يمضغ قطعة اللحم بفكيْ أسنانه وكأنه يمضغ تلك الفكرة ويقلبها فى فمه قبل عقله . سيغادران الآن .. ولن يمس عروسه قبل سفرهما .

شرب وعاء الماء كاملًا وبدون أن يفطن أنها لم تتذوق شيئًا من الطعام قال لها :

- سنغادر اليوم .

*** * * * * ***

- تذاااااااااااكر .

هنا أفزعه صوت المفتش الذى اختلط بصوت صفير القطار ، فأخرجه من حالته التذكرية، وجده أمامه بزيه الرسمى فأخرج من جيبه التذكرتين فأخذهما منه المفتش ونظر إليهما ، خيل لسعد أنه سيسأله الآن عن التذكرة الثالثة لذلك الجالس بينهما – ذلك الجني المترقب – لكنه لم يلحظه وأعاد له التذكرتين وأكمل سيره بين الراكبين .

الفصل الثانى

أنزل حقيبة ملابسها على الأرض وفتح باب الشقة ودعاها للدخول ، انفتح باب الشقة عن صالة كبيرة تتوسطها سجادة متربة شحب لونها فصار البلاط تحتها أزهى؛ احتوت الصالة على أريكة كان ينام عليها ليلًا أمام التلفاز قبل أن يذهب إلى فراشه ليقضى ساعتين حتى موعد عمله صباحًا ، ومائدة طعام صغيرة مستديرة عتيقة ضمت خمس كراسٍ، استند الكرسى السادس مكسور الأرجل على الحائط الذى حمل بعض صور قديمة من الأبيض والأسود أحدهما كانت صورة رجل وامرأة فى مرحلة الشباب لكن قدم الصورة أعلنت عن رحيلهما ، كان الرجل يلبس طربوشًا وبذلة ويجلس بينما وقفت السيدة وراءه مستندة على المقعد الجالس عليه الرجل بكلتيْ يديها محاولة رسم ابتسامة ضائعة فى سبيل التركيز على عدسة المصور مرتدية فستانا قصير الأكمام، لم يظهر سوى الجزء العلوى منه بينما اختفى الباقى خلف مقعد الرجل فبدت كأنها صورة من العصور البائدة .

عُلِّقَتْ جوار تلك الصورة صورةٌ أخرى بنفس حجمها لنفس الرجل والمرأة بعد أن امتلأ جسدها قليلًا وارتسمت ضحكةٌ واثقة طبيعية ليست تائهة كالصورة الأولى بينما جلس الرجل وعلى حجره تربع

طفل رضيع صعب التمييز إن كان فتى أم فتاة ؟! بينما وقفت جوار الرجل بنت صغيرة تسند ذراعها الأيسر على ساق الرجل ترتدى فستانًا قصيرًا يكشف ركبتيها بينما ارتدت حذاءً تحته شراب طويل ، وعقدت حول شعرها القصير شريطًا أبيض ، ونظرت ببراءة دون ابتسامة على الإطلاق .

على الجانب الآخر اصطفت صورتان ببروازين ضخمين ؛ الأولى لرجل مسنٍ قليلًا ينظر بتركيز شديد . والثانية لسيدة من نفس عمر الرجل وقد وضعت على شعرها القصير وشاحًا صغيرًا ، كانت تلك الصورتان بالألوان، لكن ذلك الشريط الأسود الذى أحاط جانبيهما قد أعلن وفاتهما . احتلت صورة أخرى حائطًا منفردا، كانت لشاب صغير يرتدي بذلة عسكرية، لم يكن أحد يشك فى أنه ليس سعد بوجهه المستدير وذقنه المربعة، فُتحت الصالة على ثلاث غرف وممر . قال لها وهو يشير بيده لأماكن الحجرات حولهما :

- هذه حجرتنا وهناك المطبخ والحمام، سأذهب لأستحم .

وتركها واقفة وذهب .. ظل تحت المياه الباردة ساعة ، كان يتمنى أن تزيل المياه من عقله جميع الظنون والأفكار التى تحطمه منذ كان بالكَفْر ، تمنى لو تخترق كل قطرة ماء رأسه لتذيب كل حرف سمعه

من صديقه شوقي وتمحوه ، استمر الماء يتدفق على رأسه لإنجاح محاولته البائسة تلك .

فى تلك الأثناء كانت بدرية قد تعرفت على بيتها الجديد ؛ وجدت أن الحجرة التى قال إنها حجرتيهما هى مجرد حجرة كبيرة نوعًا ما، يتوسطها فراش قديم عليه فرش جديد زاهي اللون وخزينة ملابس عندما فتحتها وجدت أنه قد أعد لها جانبًا فارغًا لتضع به ملابسها واحتفظ هو بملابسه بالجانب الآخر ، بالجانب الأيمن للفراش وضع مقعدين ضخمين حديثيْ المظهر، ومائدة وضع عليها طبق صغير به بقايا رماد بخور أوضح سبب تلك الرائحة العطرة التى داعبت أنفها بمجرد فتح باب الغرفة .

فتحت باب غرفة الجلوس فوجدت بها طقمًا قديمًا، لكنه غير بال وحالته جيدة من أريكة وأربع مقاعد ، لكن الستائر التى غطت نافذة ضخمة أو شرفة لم تدركها قد بدت عليها القدم وعدم الاهتمام بالنظافة.

كانت هناك غرفة أخيرة مغلقة لم يقل سعد عنها شئ ، فتحتها فوجدت فراشًا كبيرًا عتيق الطراز مرتفعًا بشدة عن الأرض عليه مراتب ووسادات غير مفروشة ، وخزينة ثياب بنفس شكل الفراش وبعض الأثاث الخشبي القديم ، الذى تكدس بشكل غير منظم داخل

الغرفة لتدل على وجود حياة سابقة كاملة بها يومًا ما ، أغلقت بابها مرة أخرى وذهبت غرفتها الجديدة .

خرج من حمامه غارقًا فى أفكاره ، التى لم تستطع المياه إذابتها ، كادت دقات قلبه أن تُسمع كدقات ساعة حائط قديمة . عندها رآها تجلس على الفراش وظهرها للباب، لما سمعته التفتت له ، كانت قد ارتدت قميص نوم أحمر وأسدلت شعرها الذى يراه لأول مرة دون وشاح يغطى جزءًا منه ؛ كان فاحم السواد ناعمًا منسدلًا خلفها حتى أكمل انسيابه على الفراش وراءها ، جمال الطبيعة التى لم يرَ مثيلًا له فى أى مكان قصده . كانت متهيئة له ظنًا منها أنه لم يسترح فى بيتها بالكفر بسبب ضيقه أو لبساطته .

ضغط على شفتيه لإرغامهما على رسم ابتسامة فبدت ابتسامة عصابية ، أكمل ارتداء ملابسه ووقف أمامها يتطلع إليها ثم اقترب منها قليلًا ، بعدها هرب فارًا من أمامها بسرعة قاصدًا باب الشقة .

بعد أن خرج أخذ نفسًا عميقًا، كان شعوره كشعور من فر لتوه من شيطان بالجحيم أو حيوان هَمَّ على افتراسه ، أغلق الباب خلفه ووقف يحاول التقاط أنفاسه ، بعدها أفاق ونزل إلى الشارع قاصدًا المقهى أسفل بيته وطلب فنجان قهوة ، أشعل لفافة تبغ وشرع يحاول الإمساك بخيوط أفكاره التائهة داخل عقله .

إن كانت تلك الأقاويل حقيقية فهذا يعنى أن زوجته بدرية ابنة جني، وأنه بمجرد معاشرتها سيتزوجها جان آخر، فتلد ابنة يمنحها والدها الجني جمالًا شيطانيًا لايتغير على مدار عمرها . يا لهذه اللعنة التى أصيب بها ذلك الكفر الفقير ليمنح بناته الفقيرات ذلك الجمال الذى لا ينفعهن بشئ، فلن تعمل إحداهن بالسينما ولن تتزوج إحداهن زوجًا ثريًا يشتري ذلك الجمال باللآلئ . ثم أخذ يسأل نفسه ماذا لو كانت مجرد شائعة ؟! ماذا لو كان ذلك الجمال ماهو إلا توارث جينات أهل الكفر معًا ؟!

لم ينتبه إلا وآذان العصر يملأ المكان حوله ، كان مواظبًا فقط على صلاة الجمعة بالمسجد ومهما حاول مواصلة الصلاة فى أوقاتها فشل . شئ ما جعله بحاجة لدخول المسجد الآن والصلاة .

بعد أن توضأ دخل المسجد يستمع للقرآن قبل رفع آذان الإقامة، بعدها فرغت الصلاة وهَمَّ الرجال بالخروج ، تقدم سعد وسلم على أحد الشيوخ كان يعلم أنه إمام المسجد منذ سنوات وهو من يؤم المصلين فى صلاة الجمعة كل أسبوع التى يؤديها سعد، كما أنه كان يعقد حلقات للدروس الدينية كل أسبوع بعد صلاة المغرب ، كان يُدعَى الشيخ ريحان ، يعرفه أهل الشارع جميعهم ، كان شيخًا طاعنًا فى السن، اكتست لحيته وبقايا شعر رأسه بالشيب، يرتدي جلبابًا ناصع البياض .

- السلام عليكم يا شيخنا .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

تململ قليلًا قبل أن يقول : - أريد أن أسأل فى أمر ما .

- تفضل .

- أريد أن أسال عن الجن .

- عن سورة الجن ؟

رد سعد على الفور: - لا .. عن الجن أنفسهم .. هل يروننا ؟

تعجب الشيخ من سؤال سعد المفاجئ، ثم ردَّ عليه : قال تعالى : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ }[1] .
الآيات فى القرآن الكريم تحدثنا عن استطاعة الجان رؤيتنا حيث لا نستطيع نحن ، فمعنى كلمة جان هو كل ما هو مخفي عن عيوننا سريع الحركة ، كقول الله تعالى في سورة النمل : { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ }[2] ،
، ثم أكمل حينما شعر أن سعد يود معرفة المزيد :

---

[1] سورة الأعراف . الآية ٢٧
[2] الآية ١٠

- والجان من مخلوقات الله خلقها من نار السموم قبل خلقه آدمَ عليه السلام، يقول تعالى : { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } * [٣].

نظر سعد للبساط أمامه وفكر قليلا بعدما شعر أنه بذلك سيبعد عما يريد معرفته ، حتى قال :

- أقصد .. هل يتزوج الجن ؟

رد الشيخ ريحان على الفور : - طبعًا .. قال تعالى فى سورة الأعراف : { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ }[٤]
إلى آخر الآية الكريمة وقال تعالى فى سورة الرحمن : {سنفرغ لكم أيها الثقلان }[٥]
الثقلان هما الجن والإنس، وهما من يثقلا الأرض بوجودهما ، الجان عباد الله كالإنس ، يتزاوجون ويتناسلون ويصير عليهم ما يصير علينا من موت وبعث وحشر ثم حساب لمن أعطى منهم حرية الإختيار، ألم تقرأ سورة الجن ؟! الجان منهم المؤمن ومنهم الكافر ، قال تعالى : { وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا }[٦] .
هز سعد رأسه فاهمًا كلام الشيخ وقال : - ويستطيعون إيذاءنا ؟

- { *إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا* وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }[٧] .

---

[٣] سورة الحجر. الآية ٢٧
[٤] الآية ٣٨
[٥] الآية ٣١
[٦] الآية ١١
[٧] سورة النحل . الآية ٩٩

قال سعد : - معنى ذلك أنهم يستطيعون ؟

- كل شئ بأمر الله يابنى ، والمسُّ مذكور فى القرآن فى سورة البقرة قال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[٨].

- وكيف النجاة يا شيخنا من أذاهم ؟

- بملازمة الاستغفار من الشيطان الرجيم والإكثار من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . وقراءة المعوذتين وآية الكرسى ومداومة الصلاة .

خرج سعد من المسجد بعد أن حيَّا شيخه، وأخذ يردد آية الكرسى والمعوذتين

فتح الباب فاستقبلته زوجته التى لا تدرى ماذا يحدث ، فاحتضنها بحنان واشتياق .

* * * * * *

[٨] الآية ٢٧٥

كانا يتناولان الإفطار الذى أحضره سعد قال لها وهو يتناول الخبز بالفول :

- كيف ماتت أمك يا بدرية رحمها الله ؟

- ماتت شابة عندما كان عمرها ثلاثين عاماً فى حادثة .

تعجب سعد من كلمة حادثة التى لا يسمعها إلا فى حوادث الطرق والسيارات ، وما يذكره عن قريتها أنها لا تسير بها أي سيارة سوى المواشى والحمير ، حتى أنه لم يلحظ أي دراجة .

- حادثة ؟! كيف ؟

قالت بتأثر : - وقعت فى الترعة فغرقت .

تعجب أكثر لذلك وقال : - رحمها الله ، وهل ترعة الكفرعميقة لتلك الدرجة ؟

قالت بلا مبالاة كموضوع قديم تم غلقه بكل ألغازه : - الله أعلم .

شعر سعد أنه المطلوب منه الآن تصديق أن سيدة فى الثلاثين تسقط فى ترعة لم تتجاوز مياهها ثلاثة أمتار ويكون مصيرها الغرق . لم يرغب أن يسأل أكثر فى هذا الشأن لرغبته فى عدم الخوض فى موضوع ذلك الكفر ومشاكله التى أربكته منذ عقد قرانه ، ابتلع لقمة

الفول وقضمة من لغز مقتل والدة زوجته أو انتحارها ، وشرب وراءها كوبًا كاملًا من الماء ليستطيع هضم ذلك اللغز عديم التصديق .

ترررررن .. ترررررن دق جرس الهاتف فقام سعد من المقعد ورفع السماعة .

- ألو .. صباح الخير يا عريس .

علم سعد على الفور من المتصل ورد عليه : - أهلًا يا شوقي .. كنت سأطلبك .. أين اختفيت يوم الزفاف ؟

ضحك شوقي وقال : - اختفيت ؟! كنت جوارك بحفل الزفاف لكنك فقط لم تنظر جهتي.

رد عليه سعد قائلًا : - ولكنى لم أرك أيضًا يوم سفرنا .

- كنت مازلت نائمًا وعلمت بسفرك عند الظهيرة ..ألم يكن الاتفاقُ المكوثَ بالكفر أسبوعين ؟ !

رد سعد لعدم رغبته الخوض فى ذلك الأمر : - حسنًا .. حسنًا

- إذن نراك بعد شهر العسل . قالها شوقي وضحك . فأغلق سعد الهاتف حيث ما يزال يحمل ضغينة فى نفسه له كونه السبب فى تعرضه لتلك الهواجس ناحية زوجته الحسناء .

عاد بعدها ليجلس جوار بدرية ، كانت قد أنهت إفطارها عندما بدأت المساجد حولهما فى رفع آذان الظهر فقال لها :

- لمحت عندكم مسجدًا واحدًا فى الكفر.

ردت بدرية : - نعم إنه مسجد الشيخ الداوودي .

سألها سعد : - ومن صاحب الضريح الذى أمامه ؟

قالت على الفور : - إنه مقام الشيخ الداوودي رحمه الله .

أخذ قضمة من بيضة مسلوقة وقال : - هو من بنى المسجد إذن ؟

- لا أعلم

فقال وهو يتناول آخر قطعة من البيضة : - إذن سُمي الكفر على اسمه؟

ردت بدرية بعدما أنهكها كثرة الأسئلة : - مِن الوارد .. لا أعلم لكنه من الأولياء وأهل الخطوة.

تعجب سعد لتلك الكلمة فسألها : - ما معنى ذلك ؟

أوضحت بدرية :- الشيخ الداوودي صاحب كرامات عديدة ؛ كان الناس يقصدونه ليلبي احتياجاتهم ، أي شئ الشخص يريده يحققه على الفور ، وكان من أهل الخطوة .. كان يتواجد فى عدة أماكن بنفس الوقت .

قال سعد مستهجنًا ما يسمع : - حقًّا ؟! وهل يحدث ذلك ؟!

قالت بهدوئها الذى علم أنه جزء من جمالها وبدأ الاعتياد عليه :

- بالطبع .. لقد كان الجميع يشاهدونه فى عدة أماكن بذات الوقت ، عدة مرات لمحه أهل الكفر فى بيته والبعض أقسم أنه كان عندهم يبخر لهم منازلهم لتحل البركة عليهم ، كما أن بعض أهالي الكفور المجاورة اخبرونا أنهم رأوه فى الحجاز يؤدى مناسك الحج فى حين أنه لم يبرح الكفر قط .

رفع سعد حاجبيه وأبدى تعجبه وسأل : - هل رأيتِه يا بدرية ؟

- لا مات قبل مولدى بعدة سنوات .

- إذن ما نوع تلك الكرامات التى تقولين عنها ؟

ردت بدرية شارحة : - الكثير .. مثلًا من كانت أرضه جافة عطشى كان ببركة دعائه يجعلها خصبة كثيرة الزرع ، كما أنه كان يرد الغائب و يعالج العاقر ويداوي المريض .

- أستغفر الله العظيم . قالها سعد بعد أن بدر إلى ذهنه فكرة إحضاره الجان للزواج من بنات الكفر ، وما سر تواجده فى عدة أماكن بنفس الوقت ؟! تمنى لو كان ذلك لم يتجاوز بضعة أكاذيب من أهل الكفر الجهلاء . أخذ يقرأ فى داخله سورة الناس. وعندما أنهى القراءة سأل بدرية :

- ماذا يفعل الناس بضريحه ذلك ؟

- الضريح كان محلَ سكنه ولما مات دُفن به ، وصار يقصده الأهالى للتبارك به .

قال بتهكم : - ينقصكم إقامة مولد عنده وذبح الأضاحي وختم القرآن .

ابتسمت ابتسامتها الهادئة الخجولة غير مدركة تهكمه، وقالت : - هذا مايحدث .

اعتقدت أنه يود معرفة الكثير عن كفر داوود ولم تدرك أنه يود نسيانه كليًا بكل ما فيه .

الفصل الثالث

استقامت الحياة المثالية لسعد أسبوعًا كاملًا مع زوجته ، فكر كثيرًا الخروج معها لقضاء بعض الأوقات فى أماكن عامة أو دعوتها لمشاهدة المدينة التى لم تشاهدها من قبل، لكنه عدل عن ذلك وفَضَّلَ المكوثَ بالمنزل معها . علم من أول يوم زواج أنها لا تطلب شيئًا ، فقط هى زوجته التى تلبي طلباته وتحترم رغباته ، أيقن أنه بذلك قد ملك الدنيا وما فيها فى راحتيه، فليحسده أهل الأرض جميعًا على تلك الزيجة التى لم تكلفه شيئًا وتجعل حياته هانئة .

علم معظم سكان البيت بخبر زواجه خاصة الشقة بالأسفل والتى كانت تقطنها السيدة أم هادية وزوجها زكريا ، كانا بعمر والديه المتوفيين ؛ ظلا بالمنزل بعد أن تزوج أبناؤهما ، كانا يعرفانه منذ صغره ولطالما ساعدت والدتُه أمَّ هادية فى عدة شؤون لها ولبناتها ، عندما علما بزفافه تمنيا رؤية عروسه التى يخفيها بين جدران شقته فى حين وعدهما أن يزوراهما قريبًا . كان من تبقى من سكان العمارة الأصلين قليلين، فأغلب الشقق قد سكنها الأبناء أو بيعت لسكان جدد ، أما الشقة المقابلة لشقة سعد فكانت لجاره عبد الله الذى تربَّى معه فى

طفولته، كان عبد الله قد تزوج من زميلته بالمدرسة التى يعمل بها مدرسًا لمادة التاريخ، وجعلها تترك العمل بعدما رزقهما الله بزياد طفلهما الرضيع .

كانت الساعة السابعة مساءً حينما جلس سعد وبدرية يشاهدان التلفاز، وقد ارتدت ثوب نوم أسود أظهر الكثير من جمالها . كان يحمل فنجانًا من القهوة بيدٍ ، ويدُه الأخرى تحتضن بدرية وهى جالسة جواره .

- داووووووووود

فجأة صمت الكون حول سعد وتصلب شعر رأسه ووقفت دقات قلبه دقيقة فلم يقوَ على الحركة.

- داووووووووود

هكذا دوَّى صوتٌ مخيفٌ من وراء باب الشقة، جعله يلبث فى ثباتٍ تام عدة لحظات، نَبَضَ قلبُه بشدة بعد توقفه للحظة عندها استطاع الحركة والكلام .

- ماذا كان هذا ؟

أجابت بدرية وكأنها لم تسمع أى شئ سمعه سعد وقد نظرت له فى تعجب :

- ماذا ؟! تقصد البطل ؟ ألم تعلم أنه سيفعل ذلك من البداية ؟

وضع فنجان القهوة على المائدة الصغيرة أمامهما وقال وقد أنزل يده بعيدًا عنها :

- لا لا .. أقصد ما ذلك الصوت خلف باب الشقة ؟

- ماذا ؟ لم أسمع شيئًا .

أغلق التلفاز عندما دوى ذلك الصوت مجددًا :

- داووووووود

على الفور هبَّ سعد من مجلسه وقال وهو لا ينظر لبدرية :

- هذا هو ..

قالت بدرية : - إنها القطط .

القطط ؟! إنها تقول داوود ، تذكر قولًا سمعه فى طفولته أن الشياطين تتخذ القطط والكلاب وأحيانًا النعاج لتحل فى جسدهم ليلًا، وتتركهم صباحًا، لقد أتى ذلك الشيطان يموء باسم كفر امرأته، ليذكره بما نسيه

الأيامَ الماضية، شعر كأنه كان فى سبات وهدنة، إلى أن سمع ذلك القط فانتهت الهدنة بينه وبين مخاوفه .. لقد أتى ذلك الجني لينال زوجته وقت معاشرته لها ، لكن خوفه الآن عليها صار أعمق ، لقد صارت زوجته ومن حقه حمايتها .

- ألم تسمعيها ؟ ! أليس ذلك اسم قريتك ؟

قالت بدرية بذات هدوئها ورغبتها تهدئة سعد هو الآخر :

- إنهم فقط يتشاجرون ؟

- من هم ؟

- القطط .

ازدادت عصبية سعد وشعر أنه الشيطان ذاته وصل من كفر داوود لتوه ، بينما أخذ يردد وهو ينظر لزوجته : - إنه يقول داوود .

- نعم هذا ما تفعله القطط مثلما تقول اليمامة : سبحوا ربكم ، وكما يقول الكروان : الملك لك ، تقول القطط داوود .

أصرَّ سعد على فكره، وقال : - لا .. القطط لا تقول ذلك من تلقاء نفسها .

قالت بدرية مفسرة : - إنها تستغيث بسيدنا داوود عليه السلام . الجميع يعلم ذلك .

- عندما ترى شيطانًا ؟

- لا عندما تتشاجر معًا .. إنهم مجرد قطط تتشاجر على الدرج .

لم يسمع ما تقول حينها ، نهض من مكانه واتجه صوب باب الشقة يفتحه ، وجد أمام الباب مباشرة قطًّا أسودَا ، لا يزال فى مناجاته ناظرًا بغضب .

- ابتعد .. ابتعد .

قالها سعد وهو يحاول تهديد القط بضربه بقدمه فى حين ظل القطُّ ثابتًا شاخصًا ببصره جهة باب الشقة المفتوح . تبعته زوجته بدرية لتمسك ذراعه وتبعده عما يفعل ، فطوح ذراعه ليحررها من يد بدرية، فبدا كأنه يضربها ، بعدها أغلق باب الشقة بقوة واتجه للمطبخ ووسط ذهول زوجته خرج ومعه عصا مكنسة، وفتح باب الشقة ثانيَة وبمجرد أن بدأ فى إخافة القط هرب من أمامه ليهبط السلالم فارًا .

- لمَ كان ذلك ؟! لم يفعل لك شئ .

قالتها زوجته بتعجب .فى حين ارتمى على الأريكة مرهقًا .

بالشقة المقابلة لهما قالت سعاد :

- ماذا كان ذلك يا عبد الله ؟

رد زوجها وقد أغلق باب الشقة : - لا أعلم ما بال سعد ؟! أعتقد أن صوت القطة أزعجه . ثم أكمل : - لم يرنى حينما كان يخيف القطة ليبعدها عن الباب .

ردت زوجته متعجبة : - غريب هذا !! ثم حملت رضيعها .

قال عبد الله : - لا تتعجبي .. مازلت أتذكر والدته وهى ترش أمام باب منازلنا الماء لتقول لنا أن الماء بالملح يمنع تحقيق الأعمال السفلية .

هدهدت سعاد رضيعها وقالت : - يا إلهي .. أى أعمال ؟

- لا أعلم .. كانت دائمة الحديث عن العفاريت فتخيفنا جميعًا ، لكننا عندما كنا نمرض كانت ترقينا فنصير سالمين . صمت برهة ثم أكمل : - أعتقد أن موت ابنتها أخت سعد وهى صغيرة قد أثرفيها كثيرًا . هل تصدقين أن سعدًا هذا ظل يرتدي برقبته حجابًا يحميه من الحسد حتى سن الخامسة عشرة ؟!

ثم وضع يداه فى جيبيْ منامته وقال : - هل ترين أن أذهب إليه الآن أطمئن عليه ؟

ردت زوجته : - لا أعتقد .. اتركه مع عروسه .

قال على الفور : - لقد لمحتها جواره .. كانت تحاول إدخاله الشقة ويترك القطة .

- وكيف تبدو ؟

أخفى ضحكته عنها وقال : - بالطبع لا تقارن بجمالك .

* * * * * *

بعدها بنصف ساعة كان سعد قد ارتدى ملابسه وخرج إلى الشارع ، لم يستطع الذهاب لأبعدَ منَ القهوة أسفل بيته .

هكذا جلس يرتشف كوبًا من الشاى، ويدخن التبغ غير شاعر بمدى سخونة الكوب الذى يحمله ، بينما عقله يحاول الإلمام بما مَرَّ به . لقد تبعها شيطانها، إنه ضعيف لا يقوى قهره ، لم يقهره أحد من رجال كفر داوود ، ارتَضَوا بالواقع فصاروا تعساء وشيوخًا حتى رغم صغر سنهم ، لقد حمل للعاصمة الآن جنيًّا آخر ؛ جنيٌ يرغب في زوجته .

وبينما هو فى تفكيره المحموم لمح شيخ المسجد – الشيخ ريحان- بجلبابه وعمامته البيضاء يخرج من الجامع . عندها تذكر أنه لم يُصَلِّ

المغربَ والعِشاءَ ذلك اليوم ، فنهض من جلسته على الفور وقصد المسجد .

عندما كانت الساعة الثالثة فجرًا أضاء الكهرباء بالمنزل فوجد زوجته نائمة على الأريكة وقد استيقظت فور دخوله ، ترك الحِمل الذى كان بيده وقال لها :

- لما لم تنامي بالفراش ؟

ردت عليه وهى تنهض ناعسة : - قلقت عليك لم أعلم أين ذهبت ومتى ستعود .

- حسنًا لقد عدت فلتذهبي للنوم .

ثم تركها وذهب جهة إحدى الخزانات بحجرة والديه القديمة ثم عاد يحمل مطرقة وبعض المسامير بينما لازالت بدرية واقفة . ودون كلمة أخرج من أحد الأكياس التى كان يحملها لوحة متوسطة الحجم نقش عليها سورة الناس وغلفت بالزجاج ، تلفت حوله يتفحص الجدران حتى اتخذ موضعًا على الحائط جوار صور والديه المُعَلَّقَة وأخذ فى طرق مسمار بها . دوى الصوت فى ذلك الوقت عميقًا مدوِّيًا، فلم يهتم بأمره وواصل الطرق .

تساءلت زوجته ماذا تفعل؟! فردَّ حازمًا :

- لا شيء، إذهبى فقط لتنامي الآن . ثم فجأة التفت إليها وقال :

- لا .. لحظة .. انتظري .

أخرج لوحة زجاجية أخرى من أحد الأكياس بنفس حجم اللوحة التى يعلقها الآن كانت لآية الكرسي ، أخذ مسمارًا وذهب إلى حجرتيهما . لم يثنهِ تأخرُ الوقتِ عن تعليق اللوحة فوق الفراش مباشرة، ثم ترك زوجته بعد أن أقنعها بالنوم وخرج يكمل ما بدأه .

هكذا أنهى تعليق خمس لوحات من السور والآيات القرآنية فى عدة أماكن بالمنزل، ثم جلس على المقعد منهكًا. لقد نفذ نصيحة الشيخ ريحان الليلة – (أينما تولوا فثم وجه الله) - الآيات القرآنية بالمنزل تحميه وتزيد خيره .

ود لو كان صارحه بمخاوفه وما علمه عن قرية زوجته لكنه فكر كثيرًا كيف سيقول له - سرُّ جمال زوجتى بسبب أن والدها الحقيقي هو شيطان مارد . لهذا السبب لم يستطع التصريح له بكل شئ .

شعر بالإنهاك وتذكر جمال الليالي الماضية حينما كان ينعم بالدفء فى حضن زوجته الحسناء بينما قال : - يا لطول هذه الليالي ؟!

استيقظ سعد على صوت آذان الفجر عندما أدرك أنه قد قضى ما بقي من ليلته على ذلك المقعد والمصابيح مُضاءة .

الفصل الرابع

جلست مدام عفاف السيدة الثلاثينية وهي تحاول ترتيب أوراق داخل سجل لم تنهه منذ شهر ، رفعت عينها على الباب وصاحت :

- لقد وصل العريس .

ومالبث أن التفَت العيون جميعها عليه وهو يدخل المكتب .

قال الأستاذ رؤوف زميله : - مبروك يا سعد رغم أنك لم تدعنا إلى الفرح .

فى حين أخذ الجميع يصافحونه ويباركونه الزفاف .

قالت مدام عفاف بخبث : - عيناك منهكة .. ألم تسترح فى إجازة شهر العسل .

لم يدر حينها أيضحك أم يبكى مما قالته ، كان كلامًا عاديًا لزوجين زُفَّا حديثاً ؛ لكن بالنسبة له كانت مداعبة قاسية .. هل يستطيع الآن أن يقول لها أن عينيه منهكتان لأنه سهر طيلة الليل يعلق الآيات والسور القرآنية حتى تحفظ زوجته من براثن شيطان خفي خُلِق من نار ؟! هل

يستطيع أن يقول لها أن شهر العسل الذى تتحدث عنه ما هو إلا أسبوعان فقط ، لم يلحظ أى من زملائه أنه قد قطع أجازته وعاد للعمل ليترك زوجته بالمنزل بعد أن أحضر لها الطعام لتعده ؟!

أنهى الرد على جميع التهاني وشرب العصير الذى أحضره له زميله عوف ، بعدها أخذ يتفرس فى زميلته عفاف وهى بمكتبها المقابل له بشحوب وجهها وعينيها العميقتين وأنفها الضخم الملامس لشفتيها الرفيعتين ، تزوجت منذ عامين فقط . أخفض عينه وتساءل فى نفسه لما لم يفكر بالزواج بها؟! أليست قبيحة لتغنيه عن العذاب الذى يتغمده الآن ؟! أليست من العاصمة بحيث لا تحمل معها شيطانها من القرية؟! أليست زميلة له وستعينه على مصاريف البيت ؟! ألم تكن ترغبه من البداية ؟!

تذكر أنها لازالت تحبه حتى وهى متزوجة ، فعندما علمت بخبر سفره للزواج نظرت له نظرة نارية ، ضحك بسخرية عما يفكر به .. إنها أشبه للرجال من النساء ومع ذلك كانت تتمنى أن يتزوجها ، ضحك أكثر عندما تذكر الحُسن مجسدًا الذي تزوجه ولم ينعم بها سوى أيام ... تنهد : - آه

سمعه زميله رؤوف الذى يستقر مكتبه جواره وقال له :

- سأطلب لك فنجان قهوة، يبدو عليك النعاس . ثم ابتسم .

عندما عاد المنزل فى الخامسة تمنى الاستلقاءعلى أقرب مقعد ، كان يشعر بالتعب طيلة اليوم ، طرق الباب عدة مرات لكسله فى إخراج المفتاح . فتحت له زوجته وهى ترتدي ثوبها الأحمر الخفيف، كان قد حفظه من كثرة ارتدائها إياه . بعد أن دخل قال لها :

- لما لم تسألين من الطارق قبل أن تفتحى ؟ أو لو كنت شخصًا آخر .. كان سيراكِ هكذا ؟!

ابتسمت بدرية ابتسامة عذبة ساحرة وردت :

- لقد رأيتك من العين السحرية بالباب .

هكذا نسى تمامًا أمر العين السحرية كان ذلك مؤشرًا على ضرورة استسلامه للنوم للحصول على المزيد من التركيز قليلًا .

- الغذاء جاهز .

قالتها بدرية قبل أن تراه يغطُّ فى نومه بكامل ثيابه على المقعد . جلست عند قدميه تخلع له حذاءه وتضعه جانبًا فى حين لم يشعر هو بها أو بأى شيء حوله .

*** * * * * * ***

كان الجو غائمًا .. لم يكن هناك أي مصباح مضاء ، ربما كانت تلك الإضاءة الخافتة ماهى إلا غروب الشمس فى يوم شتوي بارد .

- قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن شر حاسد إذا حسد .

احرس ابني يا حارس .. احمِ ابني يا حامٍ .. برحمتك يارب أعوذ بك من شر كل هامة .. ومن كل عين لامة .. احرس ابني ياحارس احمِ ابنى يا حامٍ .. أعوذ بك من شر كل شيطان مارد .. ومن شر كل حاسد .. احرس ابني يا حارس .. احمِ ابنى يا حامٍ .

تمتمت السيدة بعدة كلمات أخرى بصوت خافت .

قال الصبي الذى تدثر بعدة أغطية راقدًا على الفراش :

- لقد تحسنت يا أمى ، هل أستطيع الآن الخروج واللعب مع عبده ؟

وضعت الأمُّ يدَها اليمنى على رأسه وأغمضت عينيها واستمرت فى تمتمتها الغامضة ثم أحكمت الأغطية عليه وقالت :

- لا زلت متعبًا .

ثم خلعت من رقبتها سلسلة من الخيط آخرها ورقة مطوية ثلاثًا، وألبسته إياها ووضعتها فوق صدره .

- لتنم الآن يا بني . ثم لثمت وجنته .

هنا طرق أحدهم الباب عدة مرات فتركته وقامت وأغلقت الباب خلفها . أخذ الطفل يحدق فى الحجرة شبه المنيرة بسبب وداع أشعة شمس النهار بينما سمع صوت أمه ذاهبة جهة باب الشقة تفتحه .

- أهلًا أهلًا .. تفضلى ، زوجى ليس بالمنزل .

- أشكرك .. لن أستطيع المكوث كثيرًا . هل هو جاهز ؟

- نعم انتظرى .

سد الصمت برهة ثم سمع صوت أمه :

- تفضلى .. ارتديه بعد الوضوء قبل النوم، سيحرسك ذلك الحجاب إن شاء الله .. احذري من ارتداء القمصان العارية أو الشافة حتى لا تفتنى قرينك أو ما لانراه.. حماكِ الله من كل شيطان .

- حتى مع زوجي ؟

- قدرك .. حفظكِ الله .. فقط ثلاث ليالٍ .

لم يستطع المكوث أكثر بلا حراك ، فجرى ناحية الباب وفتحه فوجد أمه مع جارتها، لما رأته قالت :

- سعد .. لما تركت فراشك ؟

- سعد .. سعد .

فتح عينه ليجد زوجته توقظه .

- إنها التاسعة ولازلت نائمًا هنا ، ألن تغيرَّ ملابسك وتأكل ؟

أغمض عينيه وفتحها ثانية فوجدها ترتدى ذات الثوب الذى استقبلته به عند دخوله. فطن أن ما رآه منذ قليل لم يكن حلمًا ، كانت ذكرى غائبة فى مكان خفي بعقله .. لم تكن رؤيا .. كانت رسالة ، فلترتدِ زوجته من الآن ملابس أكثر احتشامًا .

تركها على الفور واقفة جوار المقعد وذهب إلى خزانة ملابسها ، أخذ يقلب بها بسرعة متفحصًا الملابس بانفعال ثم التفتت إليها وقال :

- لن ترتدي تلك الأثواب بعد الآن يا بدرية .

* * * * * *

هكذا صارت بدرية تجيء وتذهب أمامه بالمنزل بجلباب ثقيل وأكمام طويلة دون معرفة السبب، لم ترد أن تزعجه بأسئلة لن تغني عنها شيئا، فهى زوجته وعليها تنفيذ ما يريد ، لكنها قدرت أن ما سمعه عن بنات قريتها هو السبب فى تغير أحواله أحيانًا وامتناعه عنها أيام عدة.

وضعت له الطعام على المائدة فنظر لها وهى تناوله طبق الأرز، ليرى شعرها المسترسل الناعم خلف ظهرها ، جزءًا يظهر بعضًا من جمالها الشيطاني ، لم تحو غرفة النوم أو دورة المياه أي مستحضرات تجميل خاصة بالشعر ، كل ما هنالك عبوة شامبو رديء يستعمله هو من قبل زواجه .

- بدرية .. ألم تفكري فى ارتداء الحجاب على شعرك ؟

نظرت له بتعجب وقالت : - إننى مُحجبة بالفعل .

خفض سعد بصره وادعى الاهتمام بتناول الغذاء وقال :

- لا .. أقصد بالمنزل .

ضحكت بنعومة هادئة قائلة :

- ومن يرتدي الحجاب بالمنزل ؟

- إذن لتقصي شعرك .

اختفت الابتسامة من وجهها وقالت :

- لو كنت تفضله قصيرًا أقصه .

قال حاسمًا : - حسنًا فلتقصينه اليوم .

هكذا بعد تناول الغذاء ذهبت غرفتها ومشطت شعرها الأسود الناعم بعدها شرعت تقصه بعناية لأسفل رقبته بقليل ، كان شعرها المقصوص طويلًا ناعمًا ، قبل أن تنظر بالمرآة لترى شكلها الجديد أخذت الشعر المُلقى على الأرض وساوته جيدًا وبخيط الحياكة صارت تلفه حوله بموضع واحد بالمنتصف للحفاظ عليه معًا ، ثم وضعته فى أحد الأكياس الشفافة كذكرى ؛ فلم تشأ أن تلقيه بالقمامة كشيء سيء لذا وضعته بين طيات ملابسها بالخزانة ، لم تقص شعرها ذلك منذ طفولتها والآن بأمر من زوجها صار شعرها قصيرًا ، هى زوجته وتعلم أنها لا بُدَّ وأن تطيعه ، ظنت حينها أنها بذلك ستنال رضاه لكن تلك الليلة أيضًا هجرها فى الفراش . عندما استلقى جوارها كاد عقله أن يذوب من فرط الأفكار النارية داخله فبدا شبه محموم ومشلول، بينما استمر الحال هكذا ليالٍ عدة .

* * * * * *

أخرج عبد الله لفافة تبغ بينما قالت زوجته بعد أن أنامت طفلها فى مهده :

- متى تظن أن نذهب إليهما لمباركتهما على الزفاف ؟

- لا أدري .

- لقد مضى ثلاث شهور ألا تظن أننا تأخرنا فى ذلك ؟

قام عبد الله من مقعده بعد أن وأد بقايا سيجارته فى المطفأة أمامه واحتضن زوجته وقال :

- حسنًا لنذهب إليهم غدًا .

ثم قبلها فى حين كانت أمام ناظريه بدرية بجسدها البض الممتلئ وثوب نومها الأحمر وشعرها الأسود المنسدل ورائها . هكذا لم يستطع إزالة صورة بدرية من عينيه وتفكيره منذ أن رآها أول مرة بالرغم من أنه رآها عدة مرات بعدها أمام باب الشقة ، لكن المرة الأولى هى التى طبعت فى ذهنه . تذكر عندما رآها تخرج تضع كيس القمامة أمام الباب عندها سألها عن اسمها كتلميذ قد أعجب بزميلته الجديدة ، عندها ادعى مساعدتها ليتلمس يدها الناعمة .

قَبَّلَ كتفَ زوجته فى حين ناجاها فى داخله : - بدرية .

فى الصباح خرج للعمل كعادته فوجد سعد يخرج من شقته .

- مرحبًا يا سعد كيف حالك؟

- الحمد لله .

ربت عبد الله على ظهره وأخذا يهبطان السلم معًا حتى قال :

- زوجتي تود التعرف بعروسك .

ارتجفت يد سعد بعصبية ، عبد الله صديقه منذ الطفولة ومن حقه وزوجته التعرف على بدرية ، تردد قليلًا بينما خرج صوته مهزوزًا غير متزن :

- بالطبع .. بالطبع .

فقال عبد الله على الفور :

- حسنًا .. لقد دعونا أنفسنا على العشاء الليلة عندكم . ثم خبط على كتفه مودعًا وسار فى الاتجاه المعاكس ليلحق بالحافلة التى تقلة للمدرسة التى يعمل بها ليترك سعد يفكر بسخرية إن كان وجب عليه تنبيهه أنه سيكون هناك خامس لهم أم لا .

فى المساء أغمض سعد عينيه بينما استلقت بدرية جواره بقميص نومها الأسود الثقيل ذي الأكمام والرقبة العالية، فكر سعد كيف مر العشاء على أفضل حال ، فزوجته بجانب أنها غاية الحسن فهى أيضًا مضيفة جيدة من الطراز الأول . جال بخاطره صورة بيتها الذى زاره

عند زواجها به وأهل قريتها البؤساء ، كيف تعلمت تلك الفقيرة البسيطة آداب الضيافة ومعاملة الجيران؟! من أين أتت بأصول الإيتيكيت وآداب المائدة؟! تنهد باستسلام لعذابه اليومى مع زوجته التى حرم نفسه عليها ليُحرم شيطانها منها، نظر لها لا يدري إن كانت لاتزال مستيقظة أم لا؟ فقط ما وقع عليه بصره هو ثوبها الأسود، لَكَمْ مقتَ ذلك اللون خاصَّة ليلًا، أغمض عينيه مرة أخرى ليجد أمامه أُمَّهُ تقف في نفس الحجرة لكن الإضاءة لم تكن غائمة ، وقفت وأمامها سيدة في العقد الرابع تقريبًا، تلألأت مقلتاها بدموع متحجرة . فى حين قالت والدته :

- إن القرين يحب ذلك اللون .. سلامٌ قولًا من ربٍ رحيم .. يجذبه .. لا ترتديه ليلًا ، سلام قولًا من ربٍ رحيم ، لا ترتديه ليلًا .. لا ترتديه ليلًا.

أخذت الجملة الأخيرة تتكرر فى أذنيه حتى فتح عينيه ليجد نفسه لازال نائمًا على فراشه جوار زوجته الحسناء ، عدل عن إيقاظها لترتدي ثوبًا آخر، لا يجذب الشياطين .

لم ينم سعد مرة أخرى تلك الليلة ، كان قد استلقى فقط مغمض العينين يفكر فيما جلبه لنفسه ، ويفكر فى زوجته بدرية وتلك الشائعة ، عند قرابة الفجر كانت جميع مخاوفه قد تجسدت أمامه فعزم أمره .

جلس على المائدة صباحًا يتناول طعام الإفطار قبل ذهابه إلى العمل ، تحاشى النظر إليها عندما قال :

- ألا تودين زيارة والدك يا بدرية ؟

وقبل أن ترد أكمل : - لن أذهب اليوم إلى العمل .. سنذهب لزيارة كفر داوود .

أضاء وجهها نورًا وأردفت : - ولن تتعطل أعمالك ؟! ما بال يوم الجمعة ؟! فلنذهب فى يوم عطلتك .

رد قبل أن تقول المزيد : - لا .. سنسافر اليوم .

ثم كف عن الأكل وازدادت دقات قلبه عندما دنا ما عزم عليه .

الفصل الخامس

وطأت قدما سعد أرضَ الكفر ثانية بعد ما يقرب من أربعة أشهر، عندما تم زفافه على عروسه الحسناء حفيدة الجان ، هكذا فكر عندما لاح حوله ذلك الجو الغائم الذى لم يفهم سببه حينها ، كان جل همه رؤية عروسه التى جلبها له صديقه شوقي ، هنا تذكره : - ألا تذهب إلى الجحيم أيها الصديق المخادع . قالها فى سره ولعنه ألف مرة .

كان يحمل حقيبة زوجته بينما سارت جواره تداعب أطفال قريتها وهما سائران لمنزلها ، كان وجهها بشوشًا كالعادة وابتسامتها لا تغادر ثغرها .

هكذا يدخل سعد الدار فيسلم على أبيها، ويضع حقيبة ملابسها على الأرض ليعلن أنه سيطلق بدرية وسط ذهولها ووالدَها ، ثم يبرر لهما أنها سيدة بيت ماهرة لكنه لا يستطيع الحياة معها بعد اليوم ، المسألة معقدة ولن يستطيعا استيعابها الآن كل ما يقدر على قوله هو أنه سيتكفل بنفقة شهرية لها تكفيها وتكفى والدها وتكفى الكفر كله برجاله وشياطينه ، هكذا يخرج من دارها وقد أزال عن كاهله تعب ثلاثة أشهر

كاملة . سيقرأ فقط المعوذتين فى الصلاة ربما سيحتفظ بالآيات القرآنية على جدران بيته ويدعو عبد الله وزوجته سعاد يومًا ما للعشاء عنده سيكونون فقط ثلاثا .. بدرية أنتِ طالق ، تلك الجملة تنهى متاعبه للأبد وسينسى تلك الأشهر العصيبة .

أفاق فجأة من غفوته تلك حينما رأى أن ابتسامة زوجته التى حسدها عليها طويلًا قد زالت بعد أن وصلا ووقفا أمام باب الدار، وجدا الباب موصدًا بقفل ضعيف بينما تبعثر التراب حول الباب ليدل على عدم فتحه أو غلقه فترة من الوقت ، انقبض قلب بدرية عن رؤية ذلك فى حين حرك سعد القفل فى عدم فهم وقال :

- ما هذا ؟ ! أين والدك ؟

ثم ابتعد قليلاً وهو يتفحص باب الدار وسألها : - هل هذا الدار ليس دارك ؟

عندها لمحت بدرية سيدة تقترب منها سلمت عليها ثم ربتت على كتف بدرية وهى تقول : - فلتقرأى له الفاتحة يا بدرية .

انسابت دمعة مسرعة على خدها وجاهدت لتقول :

- منذ متى يا خاله ؟

- ثالث يوم غادرتِ مع زوجك يا حبيبتى .

ظل سعد مستمعًا لذلك غير مصدق .. أهكذا قد مات والدها ؟ !

وجد نفسه جالسًا ببيت عمتها يشرب فنجان القهوة السادة ، كانت بدرية جالسة جواره ، تعجب من ثباتها فى تلك اللحظة .. ما تلك المرأة التى تزوجها؟! هكذا فقط بلا نحيب وعويل وسكب الثرى على رأسها ؟! ثم تذكر جمال شعرها ونعومته فأيقن أنه لاسبيل لإفساده بتراب الأرض . – آه . تنهد ورشف رشفة من فنجانه بينما جلس وسط خمسة من أفراد عائلتها أو هم كل عائلتها ، عندما لمح سيدات العائلة وبقية نساء القرية علم أن بدرية لم تكن القمر الوحيد الذى ترك السماء ليعيش بالأرض أو بكفر داوود خاصةً . – آآه . تنهد مرة أخرى بينما وضع الفنجان على المائدة الخشبية البالية أمامه لينضم لثلاث فناجين أخرى بغير ذات الشكل .

هكذا إذن قد انتهى أمله الذى تمناه وما خطط له طيلة الليلة الماضية، مات والدها ليتركها له للأبد ، لقد أتم إيداع أمانته لأحد قبل أن يرحل .

- الحمد لله يا بدرية لقد تركك فى حماية زوج طيب . قالتها عمتها لتهدئ من حزنها على فقدانه .

عندها رفع سعد رأسه فاصطدم عقله ووعيه بتلك الكلمات شديدة الصلابة ، يااللأفكار التى فكر بها والقرار الذى اتخذه أمس ، صار الآن لا يستطيع أن يتركها مع حقيبة ملابسها فى الدار وحيدة ، لقد فعل والدها الأمر الوحيد الذى بسببه سيجعله يكمل حياته معها .. فلمن سيتركها إذن ؟! لعمتها وزوجها أم وحيدة فى دارها الريفى الفقير لاتدرى سببًا لهجر زوجها لها ؟! إذن لقد اتفق والدها وصديقه شوقي على تدمير عقله وحياته ، ازدادت ضربات قلبه وهو يفكر فى عدم مقدوره من اليوم الخلاص منها ، لم تعد فكرة الطلاق متاحة .. سيعود بها مرة أخرى لدياره لتنام جواره ليلًا بذلك القميص الأسود جالب الشياطين، لتقضي على راحة باله إلى الأبد، ويصير مستسلمًا رغمًا عنه كبقية رجال الكفر .

- أكيد أكيد .

رد سعد على كلام عمتها بعد قرن مضى من حديثها .

بالكاد استطاعت بدرية فتح باب دارها بعد وفاة والدها ليبيتا ليلتهما به وتتحلى بالصمت وتحاول رغمًا عنها رسم ابتسامة مقتولة على فمها .

جلس سعد بمجرد دخولهما على أقرب مقعد من المقاعد المتهالكة بصحن الدار فى حين دارت بدرية حوله تعد شؤونًا بالبيت لا يعلمها ، عندها لمح على الجدار أمامه صورة زفافه ببدرية ؛ كانت مجرد صورة مثبته بالمسامير على الحائط بلا برواز مما أفسد حوافها تمامًا بينما وجد بدرية فى ثوبها السكرى مبتسمة خلف وشاحها الباهت ، وهو قد تصلب وجهه على ابتسامة كريهة .

أخفض رأسه بأسى، بعدها نادى على زوجته فجلست جوارة مطأطأة رأسها فقال :

- البقاء لله يا بدرية . ثم أكمل :- بدرية.. كيف لم تصرخي أو.. أقصد .. كيف تبتسمين الآن ؟!

قالت بصوت خفيض متألم :

- وماذا أفعل ؟! ثم ترقرقت الدموع بعينها كبقية اليوم، لكنها استطاعت التغلب على رغبتها العارمة فى البكاء وأردفت :

- لقد تركت عملك اليوم خصيصًا لتحضرني كي أرى والدي .. ما ذنبك أنت إذن حتى تراني باكية منتحبة وأنت تحاول إسعادى .

عندها شعر سعد بماء مغلي انسكب مرة واحدة على قلبه فأرداه محترقًا داميًا . لم يستطع قول شيء حتى ادعاء أن ما تقوله صحيح ؛ فقط تركها كي تستطيع البكاء بمفردها قليلًا وغادر .

خرج من الدار قاصدًا ذلك المسجد الصغيرالوحيد بالكفر ، لم يكن يريد الصلاة فقط ؛ أراد رؤية ضريح ذلك الشيخ صاحب الكرامات ، عندما اقترب من مكانه سمع إنشادًا دينيًا ينبعث منه ، اعتقد فى البداية أنه يسمع تواشيح من جهاز مسجل مثل ما يذيعونه بالإذاعة كل يوم قُبَيْلَ صلاة الفجر ، عندما اقترب أكثر لمح أنه قد فُرِشَ حول الضريح حُصرٌ جلس فوقها رجال ينشدون مديحًا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ارتدى جميعهم الجلاليب البيضاء واستطالت لِحَاهُم ، كانوا يميلون يمينًا ويسارًا على ما يقولون :

قصدي منك نظرة يا صاحب الحجرة

ياسيدنا النبى يا نبى النظرة منك تداوينى

دار حولهم غير ناظرين له، التفوا حول المقام المغطى بالحرير الأخضر ، استمع لهم قليلًا ثم دخل المسجد . كان مساحته صغيرة لم يرها فى أي مسجد من قبل ، لم يدرِ ما سبب دخوله، بينما لم يكن على

وضوء حتى يصلي ، ولم يكن هذا موعدًا للصلاة . فقط جلس واستند بظهره على أحد حوائط الجامع وأخذ يستمع لأناشيد الرجال بالخارج .

لمح سعد رجلًا يدخل المسجد يرتدى جلبابًا أبيض زاهي اللون على عكس كل مارآهم بالمكان ، وقف أمام المنبر وشرع فى الصلاة ، عندما أنهى ركعتين سلم ، عندها لمحه سعد ، لما عرفه قام من موضعه على الفور واتجه إليه غير مصدق .

كان الرجل قد جلس يسبح بمسبحة ياقوتية عندما جلس سعد جواره وقال :

- شيخ ريحان ؟!

التفت إليه الشيخ بابتسامة وقال :

- سعد .. كيف حالك ؟

لم يرد عليه سعد ، فقط تحدث غير مصدق وجوده أمامه هنا :

- ماذا تفعل هنا يا شيخنا ؟ وكيف وصلت ؟!

- لقد أتيت من أجلك يا سعد .. لِمَ أنت غاضب من زوجتك ؟

أبعد سعد رأسه للوراء من الذهول الذى اعتراه ثم سأله :

- كيف علمت يا شيخ ؟

- لمَ تمقتها هكذا ؟! ألا تطيعك ؟

لم يعلم سعد ماذا يقول ؟

- ياشيخنا إن الموضوع .. إنه فقط .. لم يستطع أن ينهي جملة واحدة مفيدة .

عندها وضع الشيخ ريحان يده الحاملة المسبحة على رأس سعد وشرع يتمتم بكلمات سمع آخرها فقط : - فليهديك الله يا سعد .

هنا فتح سعد عينيه ليجد نفسه جالساً بنفس موضعه بالمسجد ، أدرك أنه كان حلمًا، نظر فى ساعته ثم قام من مكانه ليتجه ثانية إلى دار بدرية ، ويمرُّ بذلك الضريح وأولئك الرجال الذين ما يزالون فى إنشادهم بالرغم من حلول الليل .

هكذا عاد للدار لينام على إحدى المصاطب المفروشة هناك .

*** * * * * ***

عندما عاد بيته بالمدينة كان يحمل أكثر من حقيبة زوجته ؛ كان يحمل همًا جديدًا ، الآن صار عليه أن يقضي بقية عمره مع زوجته التى لا يستطيع أن يعاشرها كبقية الأزواج .. كان يود حياة عادلة له ، لكن الأمر صار أصعب مما كان يعتقد .

صار هجره لها أمرًا عاديًا ، تغلب على احتياجاته وفضل انتقامه من الجني المرتقب لزوجته ، حاولت بدرية أن تتحمل الحزن على وفاة والدها بينما لم تكف عن ادعائها الابتسامة الحزينة ، كان يلحظ ذلك عندما كان لا يفعل شيئا سوى مراقبتها وملاحظة جمالها المحرم عليه.

عندما عاد ذلك اليوم وجد أنها قد أعدت الغذاء، وصارت ابتسامتها قد تغيرت عن الأيام السابقة بينما لم تنظر فى عينيه أبدًا . أنهى غذاءه فقالت له وهى تناوله كوب الشاي اليومي بابتسامة حقيقية عذبة :

- أريد أن أقول لك خبرًا ما .

رشف جرعة من كوبه ونظر لها مليًا يرتوي من جمالها قبل أن يقول :

- أي خبر ؟

- أنا حامل .

كانت تلك الجملة القصيرة هى آخر شئ أراد أن يسمعها منها . ألقت الخبر مباشرة على عقله قبل أذنه ، لا داعى للمجادلة مع نفسه الآن .. هى حامل .. حامل من الجني وستلد تلك الفتاة التى ولدنها نسوة الكفر، هكذا ستستمر اللعنة لأجيال وهو الآن يمثل دور مساعد البطل فى هذه المسرحية المشئومة . بدرية حامل لقد تم الأمر إذن .

أنا حامل .. أنا حامل .. أنا حامل ، أخذ يتردد صوتها بعقله حتى كاد أن يجن ، لم يعد يحتمل المزيد حينما تركها مسرعًا وهي واقفة أمامه ، كان يرغب فى إسكات ذلك الصوت بداخله .

خرج من بيته ونظر يمينًا ويسارًا لايدري لأي مكان يذهب بعدها وجد قدماه تقوداه إلى المسجد آخر الشارع .

عندما دخل الجامع تذكر رؤيته بكفر داوود ودعاء الشيخ ريحان له – فليهديك الله يا سعد . انزوى بركن بعيد ووضع يديه على رأسه وأخفاها بين ساقيه بعد أن رفعهما إلى صدره ، أراد أن يوقفَ عقله عن التفكير ويحاول إرغامه على عدم الصراخ . رفع رأسه لأعلى مغمض العينين لما فتحهما لم يلحظ رجلين يقفان أمام أحد الشباب الجالسين بالمسجد يحدثانه ثم رد عليهما بعدها تركاه ، لم ير سعد أيضًا رؤيتهم له والسير تجاهه ، لم ينتبه لهما إلا عندما وصلا بالقرب منه وألقى أحدهما السلام عليه بعدها قال :

- هل تود أن تأتي معنا ؟ إنها ليلة الشيخ سيدى عبد الرحيم .

فرد سعد بوهن :

- ومن هو ؟

- إنه شيخ الصوفية هنا إن أردت فاتبعنا . ثم خبط أحدهما على كتفه قبل أن يتركاه . لم يكادا يخرجان من باب المسجد حتى كان سعد يتبعهما .

كان عقله فى أسوأ حالاته فلم يتبين جيدًا الطريق الذى سلكه مع الرجال الذين وجدهم منتظرين أمام المسجد ، كان فقط يود أن يصرخ ولن يهتم بأي شيئ غير ذلك، بعد خمس دقائق وجد نفسه فى ساحة كبيرة جوار إحدى المساجد القديمة ، نُصب وسط هذه الساحة العظيمة صوانٌ من القماش الأخضر والسجاد ، اصطف الرجال بتلك الساحة واقفين ، تتطوح رؤوسهم وأجسادهم يمينًا ويسارًا وينشدون :

الله يا الله صلوا على الزين

طاطا القمر لأحمد وانشق نصين

وقف سعد بينهم وأخذ يطوح برأسه يمينًا، ليطرد صورة زوجته الحسناء من رأسه، يطوح رأسه شمالاً ليسقط خبر حملها من عقله، فى حين وجد ذراعيه قد استسلما لحركاته تلك، فلم يتحكم بهما وأخذ لسانه يكرر معهم ما يستطيع إدراكه مما يقولون ، علا صوته بشدة * الله .. الله * ، كان الصخب حوله يشجعه على تفريغ شحنة الصراخ التى كان يحاول كتمانها منذ زمن ، أخذ يطوح رأسه وذراعيه يمينًا ويسارًا، ويعلو صوته فوق الجمع فيتساقط صوت امرأته وأهل قريتها *الله .. الله* تتلاشى ذكرى زفافه بها، تُلقى منه شائعة جمال بنات كفر داوود . يغمض عينيه فيذوب فى ظلام شديد الصخب ، يعلو صوته على الجمع فتتلاشى أصوات الجميع ليظل بمفرده .

إيه العمل يا أحمد

يوم طلعة المشهد

كل الأمم تشهد

إنك رسول الله.

الفصل السادس

جلس سعد على مكتبه صباحًا، بينما جلس زملاؤه على مكاتبهم يتناولون الإفطار قبل شروعهم فى العمل، فليس فيهم من لديه بدرية التى تعد له الطعام قبل خروجه ، فجأة اقتحمت صمته زميلته عفاف :

- ما حال زوجتك الآن يا سعد ؟ لقد أوشكت على الولادة .

عقد ذراعيه على المكتب وقال :

- لا ، لازالت فى الشهر السادس .

فقالت متهكمة لتدعو زملاءها للسخرية : - آه السادس .. إنه الشهر الذى يتغير فيه شكل المرأة فتبدو قبيحة وتكبر بطنها وأنفها . ثم أخذت تضحك ، بينما تجهم وجه سعد أكثر وهو ينظر لها ، فلينظر الجميع الآن من يتحدث عن القبح ويسخر من زوجته ، آه لو ترى زوجته التى تتهكم على حملها الآن ، بالكاد يستطيع أحد أن يجزم أنها حامل . تذكر عندما سألها منذ أسبوع بأى شهر حمل هي ؟ عندها تعجب لصغر حجم بطنها ؛ فقالت بتلك النعومة التى اعتاد عليها : - إن أولى

الولادات دائمًا لا تظهر هكذا . تلك هى التى تسخر منها عفاف الآن ، عفاف التى يراها دائمًا رجلًا يرتدي الحجاب - رجلًا قبيحًا – بأنفها الكبير الذى لم يجد مكانًا يتسع له بوجهها فمال على فمها رفيع الشفاه ، فلتأتِ لترى زوجته التى أرغمها على قصَّ شعرها فاستطال خلال ثلاثة أيام أطول مما كان ، فليأتِ ذلك الرجل المتنكر فى فستانٍ حريمي ليرى زوجته صاحبة الوجه الملائكيِّ والقدِّ الرشيق ، عندما تأتي لن يحدثها عن شيطانها ؛ سيتركها فقط لتأكلها الغيرة منها ومن حسنها .

سبحت كل هذه الأفكار فى سماء عقل سعد، بينما غرست نظراته بعفاف ألف سهمٍ مزقها ألف قطعة وشلت حركتها ، كفت حينها عن الأكل والتفكير والحركة وتوقف الزمن بينهما ، لم تدرك حينها أنه يقارن بينها وبين جمال زوجته الفتَّان ؛ بل اعتقدت أنه يلومها على الحديث عن زوجته الحامل بابنه بتلك الطريقة المتعمدة .

عندما لاحظ زميلهم رؤوف ما يدور بينهما أراد إثارة موضوع آخر يشتت ذلك التوتر فقال :

- حسناً .. فلتخبرنا ما بال لحيتك يا سعد ؟! أستطلقها ؟

انتبه سعد لكلمات زميله فأبعد ناظريه عن عفاف العاشقة القبيحة ، ثم مرر يده على لحيته الخفيفة القصيرة وقال :

- لا .. فقط تغيير .

*** * * * * ***

إننى أعطيت ما استبقيت شيئًا *** أعطنى حريتي أطلق يدَّيا

هكذا تغنت أم كلثوم تلك الليلة بالمقهى الجالس بها سعد ، لم يبرح بعد عادته تلك حتى بعد زواجه ، كان يظن أنه عند زواجه سينعم فى بيته ويترك جلسة المقهى عديمة الفائدة ، لكنها صارت ملاذًا له بعيدًا عن حُسن زوجته المخيف .

- إلى أين تذهب يا سعد كل ليلة ؟

اختلط صوت جاره عبد الله مع صوت وضع الأكواب على الموائد فأخرجه من غيبوبته المؤقتة .

تنهد سعد ونظر للشارع أمامه ثم قال :

- إلى لا مكان .

ابتسم عبد الله وزفر دخان النرجيلة من فمه وقال :

- أم تذهب لامرأتك الأخرى ؟

فاجأته جملة صديقه تلك ، أراد أن يضحك على تفكيره ذلك لكنه لم يقو، يا للسخرية .. يتحدث عن امرأة أخرى بينما يفر من زوجته . فقط ابتسم له وبادله تلك النظرات الساخرة وسأل :

- أى امرأة ؟!

أخذ عبد الله نفسًا عميقًا من نرجيلته ، وأغمض عينيه وأطلقه من فمه الدخان كثيفًا وقال :

- إذن أين تسهر كل ليلة ؟ أين تختفي يا رجل ؟!

رفع سعد حاجبيه الرفيعين وأكد كلامه السابق :

- إلى لا مكان .

- حسناً فلتأخذنى معك هناك أنتقي امرأة لنفسي .

ضحك سعد هذه المرة ثم رشف رشفة من الشاي أمامه وقال :

- يا عبد الله أنا لا أخون زوجتي .

كاد عبد الله حينئذٍ أن يؤكد على كلامه ، كاد أن يقول له أن من بمكانه لا يبرح بيته أبداً ليظل مع بدرية ليلًا ونهارًا ، لكنه اكتفى بأن قال :

- معك حق .. إذن أتركك الآن تذهب لسهرتك اللامكانية بينما أعود أنا لأم زياد لأتناول العشاء .

قالها وهو يقوم من مجلسه بينما ودعه سعد واستمر فى شرب الشاي ومراقبة المارة بعين غير ناظرة ، بعدها اتجه لحلقات الذكر الصوفى ليطيح بأفكاره ومخاوفه يمينًا ويسارًا، فيعود لداره صافي البال ، يتلو آية الكرسى والمعوذتين ، فيغير ملابسه وينام دون النظر لزوجته الحامل صاحبة قميص النوم الشتوي الثقيل .

توالت حياة سعد على ذلك المنوال ، كان فى الصباح عندما تعد له زوجته الإفطار ينظر لبطنها الممتلئة فيتخيل الشيطان ينتظر وليدته، ويسخر منه لضعفه لإتاحة الفرصة له فى التمتع بزوجته – آهٍ يا بدرية .. لكم أعشقك وأكره اليوم الذى تزوجتك به ! بعد ذلك يذهب لعمله ليفرَّ من شيطانه الكائن بمنزله ، ليجد نفسه مُراقبًا من أعين زميلته القبيحة المتزوجة ، فينجز أعمالاً لا يفهمها ، ليعود آخر الليل لحلقات الذكر الصوفي ، فيريح باله فى جو محمومٍ غائم .

إذا هجرت فمن لي ومن يجمل كلي

ومن لروحي وراحي يا أكثري وأقلي

أحبك البعض مني فقد ذهبت بكلي

تلك الليلة أيقظته بدرية بِرِقَّةٍ فى الرابعة فجرًا، حتى استفاق فقال لها مغمض العينين:

- ماذا حدث ؟

فقالت بهدوء وهى تعض على شفتيها :

- إننى ألد .

فتح عينيه وأصبح بكامل وعيه ، لقد نسى تماماً فى أى شهر هي من الحمل . هكذا إذن بدون صراخ .. فقط كلمتين منها أعلنت عن ولادتها، كان قد اعتاد على هدوئها غير الطبيعي لكنه لم يتوقع ذلك الهدوء فى لحظة الولادة .

على الفور خرج لباب الشقة أمامه ليوقظ عبد الله وزوجته سعاد لتكون جوارها ، فى حين يهبط هو ليوقف سيارة أجرة تقلها إلى المستشفى حيث تلد .

هكذا تم الأمر وصارت بالمستشفى بغرفة الولادة بينما انتظروا خارجًا ، كان قلبه يدعو ألا تكون فتاة ، تمنى أن تلد الآن ولدًا، ليكسر

تلك الأسطورة وينعم بزوجته ويسخر من سذاجته فى تلك الأشهر التى قضاها بعيدًا عن حضنها بسبب هواجس وهمية . سيخرج الآن الطبيب ليعلن له عن مولوده أنه ذكر ، سيدخل غرفة الولادة فتعطيه الممرضه ولده ليحمله ليجده يشبهه هو إلى حد كبير، ولم يأخذ سمة واحدة من والدته ، ستقرُّ عيناه ويسعد به كمن تجددت حياته بعد موته ، سينسى كفر داوود بكل حكاياته وشائعاته ، سينسى مقام الشيخ الداوودي، سينسى عفاف زميلته القبيحة ، سيسخر منها يوميًا ومن عشقها الواضح له ، الآن فقط سيبدأ حياته .

هنا خرج الطبيب من غرفة الولادة حيث بدرية وقال :

- مبروك .. بنت بكامل صحتها . ليتركه فى غيابه ، ارتخت جفونه من تلك الصدمة بينما هنأه عبد الله وزوجته ، لم تقوَ ساقاه على تحمل ثقله الآن فارتمى على المقعد الذى كان جالسًا عليه ، بينما قالت سعاد:

- سأدخل أطمئن عليها .

لاحظ عبد الله حزن سعد وصدمته الواضحة فقال له :

- مابك يا سعد ؟ ألتلك الدرجة كنت توده صبيًا .. إن البنات نعمة ستأتى ومعها رزقها .

ظل سعد صامتًا يجاهد ليتنفس ، فأكمل عبد الله :

- ثم لقد خطبتها الآن لزياد حتى وإن صارت قصيرة ورفيعة مثلك .

تمنى سعد لو تشبهه حقًا، تمنى لو يجدها قبيحة مثل عفاف . خرجت سعاد من غرفة الولادة وهى تحمل المولودة متدثرة فى الأغطية القطنية ، فلم يبدُ منها سوى وجهها نظر لها عبد الله وقال :- بسم الله ما شاء الله . ثم أنزلتها قليلًا ليراها سعد وهو جالس بمقعده وقالت :

- سم بـ اسم الله .

عندما نظر لها وجدها كالبدر فى تمامه كانت كمن تشع نورًا من وجهها مغمضة الأعين صامتة – بسم الله الرحمن الرحيم . لم يقل ذلك بغرض الحماية من الحسد بل كأنه قد رأى شيطانًا لتوه ؛ إن كان الشيطان يشع نوراً . لم يستطع حملها ، جاهد على مد ذراعيه ليتلقاها من يدي سعاد لكنه عجز عن ذلك ، لاحظت سعاد هذا ولم تفهم ما يجري ، فضمتها ثانية لصدرها وعادت بها لغرفة الولادة حيث أمها تحاول استعادة عافيتها .

ظلت بدرية بالمستشفى مع مولودتها بينما غادر سعد مع عبد الله وزوجته ، عادت سعاد لبيتها بينما أخذ عبدُ الله سعدًا لأحد المطاعم ليتناولا الإفطار معًا . كانت الساعة لاتزال الحادية عشرة صباحًا . قال له عبد الله بعد أن لاحظ منذ الولادة أنه لم يتحدث :

- ما بك يا سعد ؟ لم أعلم أنك تحمل رغبات العصور المظلمة فى تفضيل الذكور عن الإناث هكذا .

ثم تَصَنَّعَ ضحكة صغيرة . لم يَرد سعد أيضًا، فأخذ عبد الله قطعة من الخبز أمامه وغمسها فى طبق الفول وقربها من سعد ليأخذها لكنه فاجأه بان قام من مقعده وذهب ، فى حين أخذ ينادي عليه عبد الله لكنه كان قد غاب عن نظره .

اتجه سعد إلى مسجد شارعهم فدخله بغير وضوء ، كان آذان الظهر لم يرفع بعد ، هكذا دخل وارتمى على الأرض وغطَّ فى النوم . لم يوقظه إلا صوت الشيخ ريحان – سعد .. سعد ، هيا يا بني لتصلي .. لقد قامت الصلاة .

فتح عينه وَرَدَّ : - حسنًا يا شيخنا سأذهب لأتوضأ .

بعدما عاد كانت الصلاة قد أقيمت، واصطف الرجال خلف الإمام الذى لاحظ أنه ليس الشيخ ريحان ، بعد الصلاة وجد أن شيخه كان فى أول الصف مع المصلين ، لم يكن يريد محادثته فانزوى بذلك الركن ، وتمدد شاعرًا بالإرهاق . بعد برهة فتح عينيه فوجد الشيخ يقترب منه – يا سعد فلتصلِ .. فلتصلِ يا سعد .

قام سعد بعدها وأخذ يصلي، لا يدرى أهي صلاة خوف أم شكر؟! فقط أخذ يصلي ركعتين فى كل مرة حتى اقتربت صلاة العصر .

فى المساء التجأ إلى جماعة الصوفية وأناشيدهم المحمومة ، كان يجاهد رغبته فى الصراخ طيلة اليوم والآن يفرغ تلك الشحنة فى الذكر الديني :

سما صفا جانا شفا

سما صفا جانا شفا

فى اليوم التالى عاد زوجتَه صباحًا فى المستشفى ، كانت متكئة على الفراش وجوارها ابنتها الوليدة ، عندما لمحت سعد يدخل ابتسمت وقالت :

- خشيت أن تدخل حليق الذقن على ابنتنا كان سيجلب لها سوء الحظ .

عبس سعد أكثر أراد أن يقول – وهل أقوى حتى أن أغسل وجهي بالماء ؟! لكنه اكتفى بأن جلس جوارها على المقعد ، كانت قد اعتادت عبوسه وعدم الرد على أغلب حديثها ، حملت طفلتها وسألته :

- ماذا ستسميها ؟

ردَّ على الفور : - لا أعلم، فلتسألي شيطانك . قالها فى عقله بينما نطق لسانه :

- أي اسم .

شعرت أنه لا يود حملها، فاكتفت بالنظر إليها حين أردفت :

- نسميها جميلة .

- لأنها جميلة ؟!

فنظرت له وقالت : - إنه اسم والدتي رحمها الله .

فسأل فى نفسه - أم هو من أقرَّ عليك الاسم ؟!

تنهد ثم قال : - فلتسميها ما تشائين .

الفصل السابع

عندما وصل سعد صباحًا إلى عمله كالعادة وجد أمامه زميلته هدى تقول له :

- صباح الخير يا سعد ألم تعلم ماذا حدث ؟

رد بلا مبالاة : - ماذا حدث ؟

- لقد تُوُفِّيَ زوج عفاف أمس . ثم تركته وذهبت ليكمل هو طريقه إلى مكتبه .

قال له رؤوف :

- سنذهب جميعنا إلى العزاء لقد حصلنا على تصريح بالخروج باكرًا اليوم .

- حسنًا .

هكذا وجد نفسه بين زملائه فى بيت عفاف بعزاء زوجها ، كانت عشر سنوات من زواجه ببدرية قد غيرته تمامًا ، أصبحت لحيته التى

يهذبها قليلًا كلما استطالت قد زحف الشيب عليها ، لكن ذلك لم يمنع نظرات زميلته عفاف له طيلة تلك الفترة .

جلسوا يستمعون للقرآن ، وعند الثامنة مساءً بدأ الجمع فى الانصراف ، فقام سعد مع رؤوف ليروا زميلتهما عفاف لتقديم واجب العزاء فى زوجها ومواساتها ، عندما رآها أدرك أنها لم تكن تحب زوجها ، فلم يبدُ على عينيها أي أثر للبكاء ، فقط اتشحت بالسواد لتعلن عن حزنها الزائف الذى لاحظه سعد .

هكذا انتهى يومه بالعمل وفى عزاء شخص غير محبب لزوجته ، كانت خروجاته الصوفية قد قلّت عن الأعوام السابقة ، اتجه مباشرة بعدها إلى المكان الذى بدأ يقصده الآن .

طرق الباب عدة مرات حتى فُتح .

- أهلاً يا سعد .. ادخل .

هكذا استقبله صديقه شوقي الذى قال له وهو يجلس جواره بعد أن أشعل لفافة تبغ :

- سَهر ليست هنا الليلة .

ثم ضحك بسخرية وأكمل : - ربما لديها عمل آخر الليلة . ثم ضحك حتى السعال .

- أنت تعلم ياسعد أننى أحب أن أنوع لأجلك ، ستأتى غداً امرأة أخرى . ثم ضحك ثانية فى حين عبس سعد وضم شفتيه . اعتدل شوقى فى جلسته وقال :

- أمرك عجيب يا سعد تأتى فقط لتراهُنَّ وهن راحلات .. لاتفكر فقط بالتمتع بهن ، إن أسعارهن ليست باهظة .

رد سعد على الفور : - لا .. أعوذ بالله أنا لاأفعل ذلك .

ضحك شوقي وقال : - إننى لأعجب .. لقد زوَّجتُك زوجة حسناء لايوجد لجمالها مثيل ، والآن تتطلع فقط للعاهرات اللواتي يأتين إلىّ!!

- دع زوجتي لشأنها .. لا تفتح ذلك الموضوع ثانية ، فتذكرني أنك السبب وراء كل ذلك .

وأد شوقى لفافة التبغ بعد أن أنتهت وقال له :

- حسنًا حسنًا ..دعك من ذلك الآن ، ما رأيك أن تتزوج بأخرى ؟

- واحدة من عاهراتك ؟

- لا لا أتحدث جديًّا ؛ لما لم تفكر بالزواج مرة أخرى ..ألم تنظر لنفسك ياسعد ؟! لقد صارت ملامحك شبحية ، من يصدق أننا بعمر الأربعين من يصدق أننا فى نفس العمر ؟!

عقد سعد حاجبيه وأخذ يفكر فى ذلك ، لقد أفنى من عمره عشر سنوات عازبًا مع زوجته وابنته ، صار مكتئبًا وحزينًا، وازدادت شيخوخته المبكرة عاماً بعد عام .. فليتزوج .. عندها لن يعود بحاجة للذهاب لشوقي كل ليلة لرؤية امرأة مغادرة تتاجر بجسدها .

تنهد سعد وفى عقله قال - فلأتزوج .

عند مغادرته بيت شوقي استبعد تمامًا أن يجعله هو من يختار له هذه المرة ، لم يكن يدري ما الذى جعله يوطد علاقته به ثانية ، لم يعلم ما الذى جعله يستبدل حلقات الذكر الصوفى بالذهاب إلى بيت شوقي آخر الليل ، فقط قرر الآن أمرًا وشعر أنه سيستنقذ حياته الضائعة .

عاد قبل الفجر لزوجته ، تطلع إليها وهي نائمة ، كانت لا تزال تنفذ أوامره الغامضة فى ارتداء الأثواب الثقيلة المغلقة ، حتى شعرها كان كلما استطال لحقته بالمقصف ، لكن ذلك أبدًا لم يمنع ظهور حُسنها ، حتى فى سنوات الرضاعة لم يتأثر جمالها ، كانت كذلك قد اعتادت عدم اقترابه منها ولم تسأله عن السبب ؛ هو شأنه ويجب أن تطيعه .

فى الصباح استيقظ على حديث بدرية مع ابنته جميلة .

- عندما يستيقظ فقط أعطي له الورقة وهو سيوقعها على الفور .

- ولما لا توقعينها أنتِ يا أمى .

هنا خرج سعد يجاهد فتح عينيه وسأل دون النظر لكلتاهما : - أي ورقة ؟

ابتعدت جميلة على الفور لتتوارى خلف أمها فقالت بدرية :

- إنها شهادة بدرجات جميلة لهذا الشهر ، انظر لقد حصلت على الدرجات النهائية فى كافة المواد ، ثم ناولتها له ومعها قلم ليوقعها بـ اسمه بعلم الاستلام ، وقعها دون النظر لأي درجة ، ثم نظر لجميلة وقال : - ألم ترتدي الحجاب بعد ؟

ردت جميلة : - لا سأرتديه الآن . ثم أسرعت نحو الأريكة حيث أخذت الوشاح الصغير ولفته حول شعرها بعد أن عقدته عدة لفات ، ثم أخذت الورقة من يد أمها وحملت حقيبتها وأسرعت بالمغادرة .

- فى أمان الله يا ابنتي . هكذا ودعتها بدرية وهى تفتح لها باب الشقة لتذهب جميلة إلى مدرستها .

قال سعد لزوجته : - لمَ شعر جميلة لا زال طويلًا ؟ ألم أقل أن تقصه؟

ردت : - هو فقط يستطيل بسرعة .

هَزَّ سعد رأسه متذكرًا ذلك الحسن الشيطاني ؛ بالطبع يستطيل كلما قصته هى وأمها ، بالطبع يتمتع بنعومة وسواد لم يرَ مثله بأي مخلوق فما جدوى قَصِّهِ باستمرار طالما سيستطيل مجددًا بذات الجمال ؟! .

جلس على مائدة الإفطار، يدُسُّ لقيمات الخبز بالفول والبيض المسلوق ، عندما نظر لزوجته وقد لمح شيئًا جعل عينيه تلمعان .

قال لها - وهو يشير إليها وهى واقفة أمامه تضع إناء الماء على المائدة :

- بدرية .. لديكِ شعرة بيضاء برأسك .

قالت ولم يبدُ عليها أى اهتمام : - حقًا ؟! لم أرها .

قال وهو ما يزال يشير بيده جهة شعرها : - هناك ، إنها بيضاء . ثم ابتسم لأول مرة منذ فترة ثم أكمل – بدرية لديك شعرة بيضاء بشعرك.

هكذا ذهب إلى عمله وصدره يمتلئ بالسعادة ، أخيراً سيظهر على زوجته بصيص من تضاد الحسن ، أخيرًا ستنكسر تلك التعويذة ، ربما كانت مجرد خدعة من البداية لكن آن الأوان لكي ينتهي كل ذلك .

حمل عقل طفل صغير فى الرابعة وأخذ يردد داخله : - بدرية أصابها الشيب .. بدرية أصابها الشيب . تمالك نفسه بالكاد حتى لا يقل ذلك لأول شخص يراه بالعمل.

تابع تلك الشعرة ثلاث أيام متوالية ؛ بدت منقذة له من عذابه منذ زواجه ، لم يعد ينظر لوجه بدرية إلا لكي يرى تلك الشعرة ، بدرية أخيرًا ستصبح امرأة عادية وتتأثر بالزمن ، ربما تفقد كذلك سِنَّةً أو ضرسًا فى يوم من الأيام . يتوق لكى يرى تجعيدة ولو بسيطة بوجهها المصقول كالماس ، شعر أنه قد أفسد عشر سنوات من عمره فى أوهام يتحقق عكسها الآن ، قرر أنه لابد وأن يعوض لنفسه كل تلك السنوات فلتعد حياته لطبيعتها وليفنى كفر داوود بكل مخاوفه وتخاريفه .

ذهب إلى العمل فوجد زميلته عفاف قد عادت من إجازتها الحدادية على زوجها ، ألقى عليها السلام متجنبًا النظر لذلك الوجه البشع الذي يحمل عينين دائميْ المراقبة له ، جلس يلعن تلك الظروف التى جمعته بها فى مكتب واحد .

عاد بعدها للمنزل مباشرة ، ولم يعرج على بيت شوقي ، كان قد بدأ ذلك منذ رأى تلك الشعرة البيضاء فى رأس زوجته .

عندما استقبلته خُيِّلَ له أنه لم يرَ تلك الشعرة المنقذة ، لذلك عندما جلس إلى المائدة شرع يتفحص بعينه رأسها جيدًا ، أراد الاندفاع وبعثرة شعرها كله للبحث عنها ، ظن أنه قد اختلط عليه موضعها فأخذ يراقب كل الأماكن بشعرها عندها لم يعد يتحمل حتى صاح :

- بدرية أين ذهبت تلك الشعرة البيضاء بقمة رأسك ؟

نظرت له وقالت : - لا أدرى .

اقترب منها وصار ينظر جيدًا وقال وهو يشير لشعرها بيده :

- قد كانت هنا ، أين ذهبت ؟

ردت على الفور متعجبة من ذلك التصرف :

- ربما قد سقطت ، أو ربما لم تكن موجودة من الأساس .

عاد موضعه وسأل : - ألم تريها ؟

- لا لم أنظر في المرآة .

حسنًا، ها هى زوجته الحسناء تعلن له الآن أنها لا تنظر فى المرآة .. المرآة التي تقضي أمامها النساءُ نصف أوقاتهنَّ .. هي لا تنظر إليها .

ترك الطعام وارتدى حذاءه وخرج .

لم يرد الذهاب لشوقى الآن ، لم يعلم أي مكان يقصد ، جلس على المقهى أسفل المنزل وأخذ يفكر ، تذكر ليالي الذكر الصوفي، الذى كان لا يفهم معظم أناشيده ، كان مجرد تفريغ لطاقته الصراخية فقط ، عندها رأى الشيخ ريحان يسير بجلبابه الأبيض وعمامته أمام المقهى قاصدًا المسجد لم يكن يريد الآن أن يحدثه ، ماذا سيقول له ؟! فقط يريد أن يجلس بمفرده حاول اقصاء نظره عنه وهو يسير أمامه إلا أن الشيخ نظر إليه ونادى :

- سعد .. يا سعد .

قام سعد على الفور من مقعده وذهب إليه وألقى السلام : - السلام عليكم يا شيخنا .

رد الشيخ ريحان : - وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .. هيا يا سعد نذهب لنصلي ستؤذن العشاء الآن .

سارا معًا حتى دخلا المسجد ، عندما رأى الشيخ ريحان عادت إليه فكرة الزواج ثانية ، فليتزوج بأخرى ليريحَ باله .

أقيمت الصلاة واصطف المصلون ، عندها لم يلمح الشيخ ريحان رغم أنه كان بجواره وعندما انتهت الصلاة وجد أنه كان يصلى فى أخر

الصف الأول بينما أَمَّ المصلين أحد الأئمة الشباب ، تفرق الرجال وذهب سعد لشيخه .

- حرماً يا سعد .

- جمعاً إن شاء الله يا شيخنا

- ما بالك ياسعد؟! تحمل همًا فوق عمرك .

أغمض سعد عينيه وتنهد قائلًا : - صدقت والله ياشيخ .

- ما بالك يابنى ؟!

- أفكر بالزواج مرة أخرى

- ألا تكفيك زوجك ؟

تمهل قليلًا قبل الرد : - ليس الأمر كذلك بل ...

قاطعه قائلًا : - حسناً لقد شرع الله الزواج بأربع ، شريطة العدل بينهن وختم سبحانه وتعالى الآيه الكريمة التى تُشرع ذلك بقوله (ولن تعدلوا) أطرق سعد مفكرًا .. هو من الأساس لا يعطي زوجته حقها وعند زواجه لن يمسها .. كاد يطلقها منذ سنوات ولم يستطع ، بالكاد يظللهما سقف واحد .

عاد لمنزله منهك الفكر، بينما استعاد رؤيته الأولى لجمال بدرية وحسنها الدائم الشاب ، لم يعد هناك دليل على عكس ذلك بعد الآن ، ربما لم تكن تلك الشعرة البيضاء موجودة من البداية . دخل غرفته واستلقى جوارها ونام .

* * * * * *

جلس بمكتبه يبادل عفاف نظراتها ، كانت ترغبه من البداية قبل أن يتزوج ، لطالما أرادت الزواج به منذ أن التحقت بالعمل بذات المكتب، بينما سعد كان ينظر لها متعجبًا من سرعتها فى خلع ملابس الحداد السوداء على زوجها الذي لم يمر على وفاته سوى شهر . اعتادت ارتداء ألوان زاهية ، لم يرَ سيدة ترتدي اللونين البرتقالي والأحمر معًا سواها ، حتى حجابها كانت ألوانه متداخلة بعدة ألوان ، كان مظهر ملابسها ينفره قبل النظر لوجهها ، الآن هى ترتدى ألوانًا أقل إبهارًا، لكنها ليست سوداء على أيَّةِ حال .

عندما ظل فترة متمعنًا بها، يفكر فى ذلك كانت هى تظن أن قلبه سيتحرك لها أخيرًا ، فقامت من مكتبها فغض سعد بصره عنها على الفور، اقتربت من مكتبه وهى تقول :

- سعد .

- ماذا؟ قالها وكأنه يقول – لا أريد أن أسمع شيئًا منك .

- كيف حال زوجتك ؟

- لماذا تسألين ؟

- فقط أطمئن عليها ، لقد تغيبت فترة ولم أعلم أخبارك .

- بخير .. أنا بخير .. زوجتي بخير .. ابنتي بخير .

عادت إلى مكتبها وقد أيقنت عدم قبوله فتحَ أي حديث معها . عندها نظر سعد لرؤوف زميلهما فوجد أنه قد لاحظ كل ذلك، فلما رآه تظاهر بأنه ينهي بعض الأعمال بمكتبه، ففكر سعد وتذكر أنه يرغب بالزواج وها هى عفاف إنها تحبه ، فعلى الرغم من مقته لها كمقت الموت ذاته؛ لكنه لم يرد منها سوى شيء واحد ؛ هناك زوجته بدريه القمر فى بهاه تقطن شقته وتعد طعامه وتغسل ملابسه و تهتم بشؤونه بينما لا تريد شيئًا على الأطلاق ، ثم ضحك عندما تذكر أنها حتى تأكل القليل . إذا هى عفاف فليعرض عليها الأمر .

حدثها عن رغبته فوافقت على الفور بسعاده ، غير أنها طلبت أن يتم الزواج عرفيًا غير رسمى حتى تستمر فى الحصول على معاش زوجها

المُتَوَفَّى ، وصار الاتفاق أن يقضى سعد جزء من الليل بمنزلها بعدها يعود إلى بيته حيث بدرية ، لن يخبرا أحدًا بالعمل وانتظرا انتهاء العدة، كان متخوفًا من الزواج العرفي ، وازداد كرهه لتلك الفكرة عندما أعلمته بعدم رغبتها علم أهلها بذلك ، فشعر حينها أن ذلك ليس زواجاً على الإطلاق ، أما زواجه الحقيقي فهو زواجه من بدرية. انتهت أشهر العدة وحددا موعدًا لزواجهما فكان ليلة الخميس ، عندها أنهيا عملهما وتلاقيا بالقرب من أحد مكاتب المحاماة وعقدا الزواج العرفي ثم اتجها إلى شقتها .

كان جالسًا على فراشها عندما أتت له مرتديةً قميص نوم أحمر، ينتهى كل طرف منه بالدانتيل ، بدا جسدها أسفله خمريًا ضامرًا ، أخذ يحدق فى وجهها عندما فاجأه كبر حجم أنفها ، قدر أنه كان يبدو أصغر بسبب ارتدائها الحجاب حول رأسها الآن تقف أمامه بدونه فبدا شعرها كاللوفِ الخشن على الرغم من كَيِّهَا إياه ، اتجهت إلى المرآة جواره وأخذت تتعطر بعطرٍ فواح ، كاد يفقد سعد وعيه ، آهٍ لبدرية التى لم تتعطر سوى ليلة زفافهما ، تذكر الآن أنها تفوح منها رائحة طبيعية تشبه رائحة المروج وأزهارها ، فقط وجد نفسه يقول :

- كفى .. كفى .

عندها توقفت وتركت زجاجة العطر واتجهت إليه وقالت : - هل تأخرت عليك .

- لا ولكن تلك الرائحة أصابتنى بالغثيان .

ضحكت عندما ظنت أنه يمازحها بعدها قالت : - كنت أعلم أنك تحبني .

- أنا لا أحبك بل ولا أطيقك . قالها فى نفسه بينما ظل صامتًا أمامها فاستطردت قائلة:

- لكن لا يهمني السنوات الماضية ، سأنساها وأُنسيك زوجتك الأولى .

أقبلت عليه فى محاولة لتقبيله عندها ابتعد فجأة يحاول التملص منها ، تعجبت منه عندما وجدته يحاول الفرار من أمامها ، لكنها قدرت أنه ربما يشعر بالخجل الآن لأنهما قد صارا زوجين منذ ساعة واحدة .

ازدادت ضربات قلبه .. قلبه الذى عانى من جمال بدرية عشر سنوات ، لا يستطيع الآن أن يتحمل كل ذلك القبح أمامه فوجد نفسه يدفعها بعيدًا عنه غيرعالمة ماذا يجرى ، وبذات السرعة أخذ قميصه الذى كان قد وضعه فوق الفراش وسارع بالخروج من هذه الشقة التى بدت له كأنها الجحيم ذاته .

تذكر بدرية ، القمر عينه ، بدرية حَسنة الصوت والقدِّ . جرى مسرعًا إلى منزله لم يدرِ كيف وصل إليه حتى دخل غرفته ليجد بدرية نائمة ، ارتمى على الفراش غير مبالٍ أن يوقظها فى حين أخذ يقبلها باشتياق عشر سنوات ، غير مبال بذلك الجنيِّ المترقب.. المترصد ، نالها بعدما كان على وشك زواجه من غيرها قبيحة الجسد والروح .

- آهٍ يا بدرية .

لن تعرف السبب الآن ولم تعرف سبب هجره لها السنوات الماضية ، هكذا استيقظ صباحًا لتتوالى أحداث الليلة الماضية أمام عينيه ، تذكر كيف ترك عفاف بقميص نومها دون كلمة ، تذكر كيف اقتنص زوجته دون أن تفهم شيئًا بدورها ، عندها شعر بالإرهاق فأغلق عينيه وانتوى تطليق عفاف وأدرك أن زواجه العرفي قد سَهَّلَ عليه ذلك الأمر فليس هناك مؤخرٌ أو نفقة أو أي شيء، فقط سيعلن أنها طالق ولن يقرب بدرية مرة أخرى .

الفصل الثامن

على الرغم من مرور شهرين على ذلك الزواج والطلاق الذى لم يستمر سوى ساعة واحدة، فقد ازدادت نظرات عفاف له، لكنها صارت نظرات كارهة أمام بقية الزملاء .عاد إلى منزله بعد زيارة شوقي الليلية ليجد ابنته قد نامت بينما استقبلته بدرية فأعلن لها عدم رغبته فى تناول الطعام وجلس أمام التلفاز يتابع شيئًا بعينين لا تريان . جلست بجواره بدرية تحاول إخباره أمرًا ما فتنظر له تارة ، و تَدَّعِي متابعتها للتلفاز تارة أخرى ، لم يلحظها سعد إلا بعد أن بدأت الكلام .

- أريد إخبارك أمرًا .

نظر لها وسأل : - ما هو ؟

- أعتقد أنك لن ترحب به .

- إذا لا تخبرينى . ثم عاد لمتابعة التلفاز شبه الصامت .

- إنى حامل .

نظر لها بينما أخذت تتفحص ملامحه وهى تتغير، صار كمن رأى بابًا من أبواب جهنمَ ينفتح أمامه ، فتح عينيه على اتساعها حتى كاد جفناه أن يتمزقا ، ازدادت حرقة أنفاسه ، وشعر أنه قد التصق فى موضعه فلا مجال للهرب بعدها استطاع فقط أن يقول : - ثانية .

حسنًا.. الآن ستجلب له ابنة جان أخرى .. ذلك الشيطان الرجيم الذي لم يستطع مغافلته واقتنص زوجته منه فى لحظة . فليلعن اللهُ من أتى بجان كفر داوود لنسائه . لم ينتظر الردَّ وغادر على الفور عندما قوي على الحركة ، بمجرد أن خرج من باب شقته وجد أمامه عبد الله جاره ، كان عائدًا من عمله عندما رآه وجد آثار الصدمة منحوتة في وجهه.

- ما بك يا سعد .. خيرًا إن شاء الله .

رد عليه سعد وهو يتجاهل الوقوف معه ويقصد درجات السلم :

- لا شيء .. سأذهب لأجلس بالمقهى .

قال عبد الله : - حسنًا سآتي معك .

هكذا نزلا معًا من البيت، وجلسا على مقاعد المقهى بالداخل، حيث الدفء وحيث صوت أم كلثوم ينبعث من مكان ما .

سوف تلهو بنا الحياة وتسخر

طلب عبد الله فنجانين من القهوة لكليهما ، بينما ظل سعد فى صمته .

قال عبد الله : - ألاحظ يا سعد أنك قد تغيرت كثيرًا .

هز سعد رأسه موافقًا بحزن ، بينما أكمل عبد الله حديثه :

- ألا تنظر لنفسك بالمرآة ، لقد ازداد عمرك عشرين عامًا فوقه .

هز سعد رأسه مجددًا حتى خيل لعبد الله أنه لا يستمع لما يقول، ففكر أن من يملك امرأة مثل بدرية سيعيش فى الجنة على الأرض، ويظل فى الثلاثين فلا يشيخ أبدًا ، سينعم بما لذ وطاب ورغب من امرأة واحدة تساوي كافة نساء العالم ، أيها الغافل الواهي عما تملكه بيمينك.

- دعك يا سعد مما يؤرقك ولتنعم بحياتك .

لم يرد أيضًا لأنه يعلم أنه لا يستطيع أن يبوح بشيء مما يعانيه من زواجه ببدرية ، وما يتخلق الآن بأحشائها ثانية ، هنا أخرج عبد الله لفافة صغيرة من جيبه بدت كمنديل قماشي ، ناولها بحذر لسعد متجنبًا رؤية أحدٍ له وقال : - خذ يا سعد .

لم يحاول سعد الإمساك بما يناوله له فكرر عبد الله طلبه : - خذ يا سعد .

تناول سعد تلك اللفافة وقال : - ما هذا ؟!

أخفض عبد الله صوته لمجيء صبيٍّ المقهى الذى وضع الفنجانين على الطاولة أمامهما وغادر

- إن ذلك ما سوف يهبُك السعادة ، هو ما سيرجع لك شبابك الذى فقدته يا سعد .. منذ متى عدلت عن التدخين ؟

- منذ سنتين .

- إن هذا حشيش .

نظر سعد لما يحمله بيده الآن فى حين استطرد عبد الله قائلًا :

- إن كنت لم تعد تدخن استعمله كبخور .

سأل سعد : - لما ؟

ضحك عبد الله ضحكة تهكمية وقال : - لسعادتك .

هكذا عاد سعد لمنزله بلفافة الحشيش ، رغب فجأة فى تدخينها ، لقد شرح له عبد الله تلك الليلة كيف تُلَفُّ وتُدَخَّنُ كالتبغ ، وكيف تحرق

كالبخور فيستنشق دخانها ، لكن تلك الطريقة لم ترق لسعد ، لذا دخل غرفة نومه حيث امرأته النائمة وجلس على المقعد الملاصق للفراش وأخرج اللفافة وشرع ينفذ ما قاله عبد الله منذ قليل ، حتى صارت بيده سيجارة تحوي الحشيش ، أشعلها وهو فى موضعه وأخذ يدخنها ، كان دخانها كثيفًا أزرق اللون بشكل واضح يذكره بالغليون الذى لا ينفك الرجل أن يشعله حتى ينطفئ فيعاود اشعاله من جديد ، هكذا أمسك القداحة بيده ليلحق باشعال سيجارته كلما بدأ دخانها يخبو ، نظر لزوجته النائمة أراد الاستلقاء جوارها عندما شعر أنه الآن غير مبالٍ بالجنيِّ الذى يترقبها ، فليذهب إلى الجحيم ، فلتذهب جميلة إلى الجحيم ولينعم هو . أراد أن يضحك عندما تخيل دخان سيجارته يتراقص أمامه كراقصة غانية ، امتلأت الغرفة حوله بذلك الدخان الأزرق المتراقص ، أراد الإمساك به والتحليق معه، ليتبع تلك الخطوات المثيرة التى تداعبه بها تلك الراقصة الدخانية ، شعر أنه قد أمضى حياته هباءً فى عدم اللحاق براقصته الخاصة . نفث آخر نفس من سيجارته ثم أرخى جسده جوار زوجته يراقب راقصته الزرقاء قبل ارتخاء جفنيه تمامًا .

* * * * * *

استيقظ فى الصباح بعيون ذابلة عندما لمح جواره على الأرض رماد سيجارة ليلة أمس ، فتذكر ما حدث لقد كان بوعيه لكن بحال أفضل ، تذكر أنه كاد أن يعاشر زوجته لولا أن ثقلت عيناه من أثر الإرهاق ، تذكر أن جميع مخاوفه وهمومه قد تلاشت من أمامه تمامًا لفترة قصيرة ، مد يديه وهو لا يزال راقدًا على الفراش وجذب ما على المقعد من حشيش متبق بالمنديل حيث لم يستخدمه بأكمله حينها ، أطبق يده عليها وقام من فراشه .

لمح ابنته جميله كالعادة وهى مغادرة إلى مدرستها ، فى حين تجنبت النظر إليه مثلما تفعل كلما رأته ، كان قد لاحظ منذ سنوات أنها لا تحدثه ولا تطلب منه مراجعة دروسها أو مناقشة درجات امتحاناتها ، لاحظ كذلك استماتة بدرية فى محاولة خلق مناخ طبيعى ومناسب بينهما، فكلما كانت جميلة تحدثها عن أمور مدرستها ومدرسيها كانت تحاول إشراك والدها بذلك بل سمعها مرارًا تطلب منها أن تحدث والدها عن شؤونها، لكن جميلة كانت قد أدركت فى سن مبكرة أنه ليس كبقية الأباء؛ فلا يأتي المنزل إلا سويعات قليلة ، يطلب فيها أمورًا لاتفهمها كقص شعرها الذي اعتقدت أنه عقابًا منه لها لأشياء سيئة لم تفعلها .

تجنب سعد هو الآخر الحديث معها، بينما ودعت أمها وغادرت ، كانت بالعاشرة لكن حسنها لم يَخْفَ عليه ، ستصبح مثل والدتها يومًا ، إن والدها الجنيَّ لفخورٌ بها الآن ، هكذا فكر سعد واستنشق هواء الصباح بينما شرعت بدرية فى إعداد طعام الإفطار له .

قال لها : - هناك رماد على أرضية الغرفة .. نظفيه .

- حسناً . قالتها بدرية ثم أردفت : - هل عدت للتدخين .

- آه .. نعم . ثم تركها ودخل الحمام .

لم يفلح الماء البارد فى إفاقة جفونه الناعسة، وذهب بذلك المظهر إلى عمله .

لم يعد يتحمل نظرات عفاف له بعد أن كفت تمامًا عن محادثته منذ طلاقهما ، بدت له ذلك اليوم أنها تحقد عليه لسهره طيلة الليل فى مغازلة زوجته بدرية ، هكذا تجسدت تلك الفكرة أمامه من نظراتها إليه، عندها ضحك فى سره عندما تذكر راقصته الدخانية التى سهر معها .

كان قد تَحَمَّلَ الكثيرَ ولم يعد يطيقها ، اتخذ قراره فجأة وذهب إلى المدير، وعندما خرج كان قد تم نقله لمكتب آخر ، عجب من حاله

وعدم اتخاذه هذا القرار منذ زمن ، هنا علم أن حشيش عبد الله سيفعل الكثير بحياته القادمة .

تذكر أنه قد أخفى القطعة المتبقية من الحشيش فى أحد الأدراج بغرفته ، أراد انتهاء العمل سريعًا حتى يعود لغانيته . لم يقابل عبد الله أو شوقي ذلك اليوم وكلما تذكر ابنته القادمة من ذلك الجنيِّ زاد حنينه للفافة الحشيش .

عاد لمنزله بعد انتهاء عمله مباشرة ، كانت الساعة لاتزال الثالثة بينما جلست جميلة على الأريكة تؤدي فرضها المدرسي، ولما لمحته تعجبت وظلت صامتة ، وخرجت بدرية من المطبخ لتتفاجأ هى الأخرى فقالت :- سعد ؟!

شعر أنها ستسأله عن سبب قدومه الآن وسخر من فكرة عدم الترحيب به ببيته نهارًا ، تركهما فى حيرتهما ودخل غرفته وأوصد الباب خلفه ، فتح درج المكتب المقابل للفراش ليجد حبيبته الجديدة ، جلس بمقعده وشرع فى فرك القطعة الصغيرة بأنامله ، هنا دخلت بدرية ففزع وحاول إخفاء ما بيده حتى قالت :

- هل تود شرب الشاي ؟ الغذاء لم يجهز بعد .

رد عليها : - لا لا ، فقط اذهبى الآن .

نظرت له بريبةٍ ثم غادرت . لم يشعر بالراحة بمنزله فى ذلك الوقت من النهار ، الأمر الذى صعب عليه تصديقه .. لقد صار فجأة ضيفًا بمنزله يفاجئ الحضور بقدومه ويعرضون عليه احتساء الشراب ، حسنًا فليغادر الآن ، وضع المنديل بذات الموضع بالدرج ، ومثلما حارت بدرية بقدومه حارت أيضًا لمغادرته .

خرج قاصدًا صديقه شوقي الذى كان عمله يبدأ مساءً وينتهي فجرًا، ليستقبل النساء العاهرات بعد الظهيرة ، هكذا فتح له الباب فى حين كانت إحداهن ترتدي ملابسها لتهم بالانصراف غير عابئة بمن جاء أو ينظر إليها ، أعطاها شوقي نقودها وودعها كما ينبغي حتى غادرت .

أشعل شوقى لفافة تبغ وأخذ نفسًا عميقا ثم قال وهو يجلس جوار سعد : - أهلًا بك.

قبل أن يجيب سعد كان قد أخذ سيجارة من علبة شوقي التي أمامه ثم أشعلها بالقداحة، أخذ نفسًا عميقًا اشتياقيًا . ضحك عندها شوقي وقال:

- ما هذا ؟! إنك تدخن من جديد .

نفث سعد الدخان من فمه وقال :

- نعم عدت للتدخين من ليلة أمس .

تلاشت الضحكة من فم شوقي وقال : - عجيب أمرك .. أنت تراني أدخن أمامك كل يوم ولم تعاود التدخين ، ما الجديد الذي دفعك لذلك ؟

أخذ سعد نفسًا آخر احتفظ بمعظمه برئتيه ونفث القليل من أنفه وقال :

- لقد دخنت أمس لفافة حشيش .

- وكيف حصلت عليها ؟

- لقد صنعتها بيدي .

- ومن أين حصلت على الحشيش ؟

- من عبد الله .

قال له شوقي مدعياً النصيحة : - دعك من المخدرات .

أبعد سعد لفافة التبغ عن فمه وقال : - دعك من النساء .

أطفأ شوقي سيجارته وقال :

- فلتصدقني يا سعد .. إن المخدرات لن تعطيك ما تريد .. كل ماتريده أن تخرج كل تلك الأفكار الواهية من عقلك .

تهكم سعد قائلًا : - فلينظر العالم من يتحدث الآن .. ألا تحرضنى كل يوم على الحصول على إحدى عاهراتك ؟!

رد شوقي مدافعًا : - هذا أمر وذلك أمر آخر ، أنت تمقت زوجتك .

عندما انتهت سيجارة سعد أطفأها وأراد أن يطفئ ذلك الحديث أيضًا فقال :

- حسنًا .. لقد كانت سيجارة واحدة وانتهى أمرها .

هكذا خرجا معًا كلًا لشأنه، بينما عاد سعد لبيته يتناول غذاءه الذى لم يكن قد اكتمل عند عودته عصرًا ، وشاهد جزءًا من فيلم بالتلفاز، بينما كانت بدرية فى بعض شأنها فى المطبخ ، شعر كأنه طفل أراد التسلل من وراء أمه ليأكل قطعة الحلوى التى مانعت أكلها قبل النوم ، هكذا ذهب إلى غرفته وأغلقها عليه وشرع فى إعداد سيجارته ، عندما أنهاها اعتدل فى جلسته ليبدأ فى تلثيم عاشقته ورسم خطوات رقصاتها بفمه ، التف حوله دخان الحشيش وعبق أنفاسه برائحته ، التفت حوله العديدُ من الراقصات زرقاوات اللون، فأخذن يَدُرْنَ حول رأسه، وكلما حاول اقتناص إحداهن تفلت من بين أصابعه، فيأخذ نفسًا آخر وينفثه بعيدًا لتتجسد الراقصات وتعود إليه بنعومة، ليدرنَ حول رأسه فتدور عيناه معهن . عبق صدره برحيق راقصاته الضبابية ، بعدها شعر بحبه للمقعد الذى يجلس عليه بعدما شعر براحة بالغة فى جلسته ، شعر بعشقه للفراش الذى يأوي إليه كل مساء ، شعر بافتنانه بالغرفة المتراقصة أمامه الآن ، هو بوعيه لكن شعوره لم يعد ملكه ؛ كان ملك راقصاته الآن .

أخذت تختفي الراقصات من أمامه واحدة تلو الأخرى بعد أن انطفأت سيجارته الداعية لهن .. انتهت الحفلة الصاخبة تاركة الغرفة معبقة بالدخان الخفي .

لم يهتم إن كانت بدرية قد دخلت الغرفة بعدما غادر أو لا ، لم يهمه إن كانت أدركت ما دخنه الآن أم لا ، فقط غادر الحجرة وجلس إلى المائدة يتناول غذاءه بعينيه الذائغتين حتى نام بسلام رغمًا عنه .

فى اليوم التالي جلس على المقهى ليجد عبد الله قاصدًا المنزل، عندما لمحه سعد نادى عليه وأشار إليه ليأتي ، فذهب إليه عبد الله بعدما رآه وجلس جواره وقال :

- أهلاً يا سعد، كيف حالك ؟

رد سعد : - بخير .. أنا بخير . فاقترب منه عبد الله وقال بصوت خفيض :

- أخبرنى هل أحرقت الحشيش ؟

- لا .. لقد دخنته .

ابتسم عبد الله وهو يقول : - جيد .. جيد ، إن ذلك أفضل بكثير ، ثم ماذا حدث ؟

تجاهل سعد سؤاله وبادره بسؤال آخر :

- من أين أحصل على المزيد ؟

تعجب عبد الله وسأل : - تريد المزيد ؟

- نعم .

نظر عبد الله بعيدًا وأخذ يفكر ثم أردف :- سمعت أن امرأتك حامل .

- آه نعم .

-ألا تخشى عليها ؟

- مما ؟!

اندهش عبد الله من عدم فهمه ، ثم أخذ شهيقًا وقال :

- حسناً .. خذ هذا الرقم واتصل به وهو سيجلب لك ما تشاء .

هكذا أملى عليه الرقم وانصرف .

استمر سعد على هذا الحال طيلة فترة حمل بدرية ، لم يكن يخشى على صحة جنينها وكأن شيئًا ما بداخله يتمنى أن تتعرض ابنتها القادمة للأمراض أو التشوه جراء ذلك الدخان المقيت لينتصر على جانها .

فى أحد الأيام راوده الشعور بالذنب لبعده عن الصلاة ، كان قد قطع تأديتها منذ أن بدأ فى تدخين الحشيش، فتوضأ ودخل المسجد يؤدي

صلاة المغرب حتى وجد الشيخ ريحان جالسًا قبل إقامة الصلاة يذكر الله ويسبحه ، اقترب منه وسلم عليه فبادله الشيخ ابتسامته وقال :

- ما حالك يا سعد ؟ لما لم تُصَلِّ منذ فترة ؟ لم يعرف سعد بما يرد فقط قال :

- إن شاء الله لن أضيع صلاة .

- أحسنتَ يا بني .

تردد سعد قليلًا قبل أن يقول : - هل لى بسؤال يا شيخنا ؟

رد الشيخ على الفور : - تفضل .

- هل تدخين الحشيش حرام ؟

- الحلال بيّن والحرام بيّن يا سعد ، ماذا يحدث الحشيش بالعقل ؟

- لا أعلم .

فقال الشيخ على الفور بعدما وجد المؤذن يرفع أذان الإقامة : - حرام يا سعد، حرام .

كانت بدرية بشهرها التاسع حينما خرجت ذات يوم تضع سلة القمامة خارج الشقة ، عندها استوقفها عبد الله قبل أن يدخل بيته أخذ يتفرس بها بتلذذ ، وقبل أن تدخل شقتها وتغلق الباب بادرها بالحديث :

- كيف حال سعد ؟

نظرت له نظرة خاطفة وأجابت : - بخير . وقبل أن تغلق الباب كان قد ألقى إليها جملة أخرى ليطيل فترة الحديث بغرض التمعن فى حسنها :

- ألا تلاحظين عليه بعض التغيير؟

على الفور أجابت بالنفى حتى تنهي أي حديث قادم وتغلق الباب لكنه اقترب سريعًا ووضع يده يمنع إغلاقه لينبهها أنه يريد استمرار هذا الحديث فأردف على الفور :

- لقد علمت أنه تلك الأيام يدخن الحشيش .

نظرت له حينها بعدما كانت تنظر بالأرض : - حسنًا .. بعد إذنك . ثم أسرعت بإغلاق الباب . تنهد عبد الله بعد أن كان يحبس أنفاسه لفرط جمالها حتى وهي حامل لم يتغير بها شيء ، وقف برهة أمام الباب حتى عادت أنفاسه كالسابق ، ثم دخل شقته .

هكذا علمت بدرية سر الدخان الكثيف الذي تلاحظه أحيانا بالغرفة صباحًا، لم تكن تعلم شيئًا عن الحشيش حتى لو وجدته بأي مكان لن تتبينه .

ذلك اليوم جاءتها أعراض الولادة ، كانت بمفردها بالمنزل وابنتها لازالت بالمدرسة ، خرجت تتحامل على نفسها الآلام وقرعت باب الشقة المقابلة عندما انفتح الباب قالت : - سعاد سألد الآن . وعلى

الفور خرجت سعاد معها واستقلتا سيارة الأجرة وذهبتا إلى المستشفى. هناك دخلت بدرية غرفة الولادة واستطاعت سعاد أن تتصل بسعد تعلمه حتى يأتي على الفور ، كذلك اتصلت بزوجها عبد الله . فى غضون نصف ساعة كان سعد بالمستشفى بعينين ذابلتين وجفنين ثقيلين استطاع بالكاد الوصول لحجرتها ، استقبلته سعاد عند الباب وباركته على الفور : - مبروك ماذا ستسميه ؟

حاول سعد فتح عينيه أكثر من أثر الدهشة لكنه لم يستطع عندما قال :

- أسميه أم أسميها ؟

ابتسمت سعاد وهى تقول : - بل تسميه إنه ذكر، مبارك عليك .

دخل سعد غير مصدق ليجدها تحتضن وليدها ، ابتسمت ابتسامتها الرقيقة الواهنة بسبب الولادة .

سألها سعد : هل هو ولد ؟

- نعم .. ماذا ستسميه ؟

هنا رد سعد على الفور : أحسن .. أحسن .

تعجبت بدرية من الاسم وقالت : - أحسن ؟! فأخذ يردد : - أحسن .. أحسن .

هكذا تم تسجيل ابنه باسم أحسن ، غير أن أحدًا لم يدرك أنه لم يكن يقصد تسميته بل كان يريد قول أنه أفضل من ابنة الجنيِّ ، ولم ينتبه

سعد ساعتها أنه بحذف الألف من ذلك الاسم يصبح حسن وهو المرادف للجمال . وهو الاسم الذى صار الجميع ينادونه به بعد ذلك .

الفصل التاسع

مرت السنوات حتى صارت جميلة بالسنة الثانية بالجامعة ازداد جمالها ولاحت أنوثتها، الأمر الذى أغرى الكثير من زملائها الشباب للتقرب منها لكن واحدًا فقط استطاع سلب قلبها فتركت الجميع من أجله .

فى ذلك اليوم لم تكن تدرى ماذا تقول له جلسا معًا فى كافيتريا الجامعة ، لم تستطع أن تنظر فى عينيه ، مال برأسه وسأل :

- ما الأمر ؟! ما بك ؟!

تنهدت بعد أن أعطاها إشارة البدء فى الحديث وأردفت :

- حسناً .. محمد لن نستطيع أن نظل معًا بعد الآن .

- ماذا تقولين ؟!

تنهدت مرة أخرى قبل أن ترد : ما سمعته .

- إذن لقد عاد علاء .

انتفضت واتسعت عيناها أكثر مدعية الإنكار بشكل مصطنع وتمثيل رديء.

- لا .. بالطبع لا .. اممم فقط أدركت أن ... ثم صمتت .

هنا قام من موضعه وقال وهو ينظر لها فى حين أبعدت عينيها عنه، وظلت ناظرة لكوب العصير أمامها :

- لا أريد كلامًا آخر يا جميلة، إني أفهم كل شيء ، لكنك لا تعرفين الكثير عن علاء، وهو ما سيرد كرامتي بعد أن جعلتيه بديلًا لي .

بعدها سار على الفور وتركها فى حيرتها .فأخذت تفكر: ما بال علاء؟ ولما يتحدث عنه هكذا ؟! هنا رنَّ هاتفها المحمول لترى أنه علاء .. احساس غريب راودها حينها لم تكن تريد أن ترد ولا أن تخفض صوت الاتصال ، لم تدرِ معنًى لحيرتها تلك ، حتى أنها لم تعلم ما كان يجب عليها فعله ، هل كان يجب أن تلحق بمحمد لتفهم منه ما يقول ؟! أم تواسيه على قطع علاقتها به أم تلتمس منه أن ينسى ما قالته لتوها ويعودا معًا لينسيا هما الاثنان علاء ؟! ثم تنهدت .. علاء الذى عاد فجأة وبحب أشد من السابق بعد أن رأى صورتها مع محمد على موقع التواصل الاجتماعى .. هنا عاود الاتصال ثانية لكن هذه المرة أغلقت هاتفها على اتصاله وعادت إلى محاضراتها .

جلست ذلك المساء فى غرفتها مستلقية على فراشها بعد فشلها في تحصيل أى محاضرة . راودها الفضول فأخرجت هاتفها من حقيبتها وقامت بفتح موقع التواصل الاجتماعي ، كان هناك رسالة واحدة واردة لها ، كانت من علاء ، فتحتها لترى عدة رسائل :

- جميلتي – أين أنتِ ؟ – جميلتي لما لم تردي عليَّ ؟ لقد اتصلت بك مرارًا ؟ - جميلة لما تغلقين هاتفك ؟

هكذا مرَّت على رسائله بشغف ، رسائله واسمه الذى عاد للظهور من جديد بعد أن هجرها عامًا كاملًا ، تذكرت عندما حاولت الاتصال به عدة شهور ولم يرد عليها، حتى المرات القلائل التى ردَّ بها كان ردًا جافًا قبيحًا . ها هو الآن يعود من جديد ، هو من يسأل عنها ويطلب وُدَّهَا ، وبدلًا من ردِّ ما كان يفعله معها والانتقام لكرامتها تقطع علاقتها بحبيبها الذى ساعدها على نسيانه وإخراجها مما كانت فيه وأعطى لها الحب والاهتمام اللذيْنِ كانت بحاجة إليهما .

فجأة وردت رسالة جديدة أخرجتها من شرودها ، كانت من علاء .

- حبيبتي .

ردت عليه كاتبة : - كيف حالك يا علاء ؟

- أين كنتِ ؟

- لقد حضرت عدة محاضرات اليوم بعدها عدتُ إلى المنزل .

- هَاتَفْتُكِ فكان هاتفك مغلقًا .

ترددت قليلًا قبل أن تكتب الرد .

- كان الهاتف بحاجة إلى الشحن .

- إذن ماذا فعلتِ ؟

- فى أي شئ ؟

- مع محمد ؟

- لقد تركته .

- جيد .. إذن لما ما زلتُ أراه عندك بقائمة الأصدقاء هنا على موقع التواصل الاجتماعي ؟

- هل تريدني أن ألغي صداقته ؟

- نعم .

- لما ؟

- لأنك جميلتي أنا فقط وأغار عليكِ .

- منذ متى ؟

- ما بك يا حبيبتى ؟

قبل أن ترد كان قد أرسل لها صورة تجمعهما معًا فى إحدى رحلات الجامعة ، أخذت تتأملها وترى ضحكتها السعيدة على وجهها حينها وقد احتضنت يدُه يدَها الصغيرة . قبل أن تنهي تأملها للصورة كان قد أرسل لها واحدة أخرى ؛ كانا معًا أيضًا وذات الابتسامة على وجهها وهما ينظران للكاميرا ، تذكرت أيامهما معًا وحبها له ، لم تعد تتذكر هجره لها بعد الآن ، كانت تحبه والآن أيقنت أنها لا تزال ، أما محمد فق مُحِيَ تمامًا من عقلها، ولم يعد سوى أحد أصدقائها على موقع التواصل الاجتماعى المهدد بإلغاء صداقته فى أي وقت . كان علاء يدرك أنه مجرد صورة تجمعهما معًا ستعيدها لذكرياتها الأولى معه وحبها له لتنسى محمدًا غريمه الذى عاد فقط بعد أن فطن استحواذه عليها .

كانت لا تزال تائهة وسط ذكريات مرَّ عليها عامٌ، تغيرت مشاعرُها بعدها حين دلفتْ إلى حجرتها أمُّها باسمةً تقول :

- حبيبتي .. لقد أحضرت لكِ كوبَ عصير .

ثم وضعت الكوب على الكومود جوار فراش ابنتها وجلست أمامها

فقالت جميلة : - أشكرك يا أمي .

ابتسمت بدرية وبدا عليها رغبتها فى الحديث ، عندما لاحظت جميلة ذلك قالت وهى تتناول كوب العصير من جوارها :

- ما الأمر يا أمي ؟

ابتسمت بدرية ابتسامتها الرقيقة التى لم تتغير مع مرور الوقت، وردت على ابنتها :

- إنه زياد .. لقد حدثتني أمه ثانية عن رغبته الزواج بك .

أعادت جميلة كوب العصير ثانية على الكومود بعد أن رشفت منه القليل، وقالت :

- ألم أقل لكِ من قبل يا أمي ؟!

- ولما لا يا ابنتي ؟ إنه جارنا ونعرف أخلاقه وظروفه .. إن عبدَ الله صديق والدك منذ طفولته .

ضحكت جميلة بسخرية عند سماع ذلك وقالت :

- والدي ؟! وأين والدي ؟!

أدركت أمها أنها لا ترغب معرفة مكان وجوده الآن ؛ بل مكان وجوده فى حياتهم جميعًا . وضعت يدها على ساق ابنتها تبعدها عن التفكير فى ذلك الأمر قائلة :

- دعك من ذلك يا حبيبتي .. أريدك فقط أن تفكري فى الأمر ، إن زياد شاب جيد وعمله محترم بأحد البنوك وسيأخذ شقة فى نفس الحيِّ .

هنا أسرعت جميلة بقول : - إن العمل والسكن ليس كل شيء .

- ماذا تريدين أكثر ؟

ردت وهي تقوم من الفراش وقد ازدادت عصبيتها وقالت :

- أريد أكثر ، أريد أكثر من العمل والسكن ، أنا لست مثلك يا أمي أرتضي حياة لا معنى لها، وبلا أي هدف أو مقابل .

زالت ابتسامة بدرية حينها، فأدركت ذلك ابنتها فأسرعت بالقول :

- يا أمي لا أريد إغضابك ، ولكني لست مثلك ، أنا أريد حياة أخرى ، شخصًا أود حقًا الحياة معه لا شخصًا لا أشعر بوجوده معي .

قامت بدرية من جلستها وغادرت الحجرة بعد أن قالت لها :

- حسنًا يا ابنتي، لا أدري ما أقول لسعاد ولكن لكِ ما تريدين .

جلست بعدها جميلة على الفراش مرة أخرى لتلتقط هاتفها ثانية لترى عشرات الرسائل قد أُرسلت من علاء ، لم تقرأهم بل أطفأت نور الحجرة واستلقت على الفراش . جال بخاطرها السنةُ الماضية بالجامعة ، حينما أدركت سِحْرَ جمالِها وقابلت علاء للمرة الأولى ، كان بالفرقة الثانية فى نفس الكلية ، بدأ مشاغلتها والتودد لها حتى وقعت فى حبه ، عندها علمت فرقتها الدراسية جميعها، فابتعد عن ملاحقتها بقية زملائها وحقدوا جميعهم على علاء لحصوله على قلب أجمل بنات الجامعة . مرَّ عامٌ واحد فبدأ علاء يَمَلُّهَا ويبعد عنها رويدًا ، لم تتحمل ذلك وأخذت فى الاتصال به كثيرًا ومحاولة ملاقاته وانتظارَ أوقات محاضراته ، لكنه كان حينها قد ارتبط بزميلة أخرى فكفَّت عن محاولاتها . عندها قابلت محمدًا ، كان بنفس فرقته ، شعرت بالحب تجاهه فاستطاع أن ينسيها ما عانته من هجر علاء لها . تذكرت كل ذلك ثم أرغمت عقلها على النوم .

بعدها بساعتين عاد سعد للمنزل أحمرَ العينين ، كان استمراره بمزاولة الحشيش قد قارب القضاء عليه ، صار يدخنه مثل التبغ العادي ، لم يعد يعاقره فقط بالمنزل بل تعرف رجالًا صاروا يدخنونه معًا كل ليلة ، ليتعرف كل يوم نوعًا جديدًا منه وطرقًا مختلفة لتدخينه ، هكذا تقوَّس ظهره ونحل أكثر، ليصير صورة شبحية مرهقة طيلة الوقت .

دخل فوجد أن بدرية قد أعدت له الغذاء ككل يوم ووضعته على المائدة، ذهب لينام ولم يمس الطعام ، كان فقط يريد أن ينام ، دخل غرفته فوجد ابنه أحسن نائمًا جوار أمه كالعادة ، كانت قد طلبت منه بدرية مرارًا إعداد حجرة صغيرة له فى جزء من غرفة الصالون، لكنه لم يهتم ولم يجد الوقت لذلك ، هكذا ظل أحسنُ ينام بينهما فى فراشهما. ارتمى سعد على الفراش وغط فى نوم عميق من أثر المخدر.

* * * * * * *

فى الجامعة قابلت جميلة علاء ذلك الصباح ، أخذا يتجولان فى حديقة الكلية معًا ، كان يقسم لها مئات المرات عن حبه لها عندما قالت له :

- لكننى ياعلاء لا أجد سببًا واحدًا لرجوعك لي سوى أنك قد اغتظت من عَلَاقتي بصديقك محمد .

ردَّ علاء قائلًا : - لا، بل علمتُ قدر حبي لكِ بعدما تركنا بعضنا .

- أنتَ من تركتَنِى .

قال علاء مؤكدًا : - وندمْتُ يا جميلتي ، الآن أحبكِ ولا أستطيع مفارقتكِ ثانية ، ما هو قولك ؟

صمتت جميلة برهة ثم قالت :- وعلاقتي التى كانت بمحمد ؟

- سننساها سويًا ، لايهمنى الآن سوى وجودك معي . ثم صمت قليلًا، بعدها عاود الحديث : - أتعلمين .. سنعلن خطبتنا ذلك الأسبوع .

قالت جميلة مندهشة : - ماذا تقول ؟!

- نعم سأذهب لأبيك وأخطبك ، هكذا سنصير معًا طيلة العمر .

عادت جميلة من جامعتها فى الثالثة عصرًا لتخبر أمها عنه، وتطمئنها بأنه بعد تخرجه في الكلية سيعمل فى مصنع والده للسيارات.

هكذا حَمَّلَتْ جميلةُ أمَّهَا أمانةَ عرض ذلك الأمر على أبيها الغائب التائه بلا سبب بالنسبة لها .

عندما عاد سعد فى المساء وجد بدرية لا تزال مستيقظة ، وبمجرد دخوله غرفته قالت له :

- يا سعد هناك أمر ما أود قوله لك .

قال وهو يسكن جوار ابنه على الفراش : - ليكن صباحًا .

- حسنًا . ثم أدرك أنه يجب عليه معرفة ماذا تريد تلك الحسناء الشابة فقام قليلًا من اتكائه وقال مغمض العينين :

- حسنًا يابدرية، ماذا تريدين؟ إني منصت لك .

- هناك من طلب يد ابنتنا جميلة .

- زياد مرة أخرى ؟

ردت بدرية : - لا .

فتح عينيه وقال : - إذا من هو ؟

أجابت : - زميل جميلة بالجامعة ، والده يملك مصنعًا للسيارات .

انقبض قلب سعد وتسارعت دقاته ، كان بحاجة الآن لتدخين سيجارته الأثيرة .

قال : - لا .. إنها صغيرة لن تخطب الآن .

فقالت بدرية : - لكنها ليست صغيرة ، لقد تزوجتك وأنا بعمرها تقريبًا.

- حسن فلتكمل دراستها بعدها تفكر فى الزواج . قالها سعد لينهي حديثه ، فقالت بدرية : - إنه سيخطبها الآن وعندما تنهي دراستها سيتزوجها، فقط ما هو سبب رفضك ؟

- فقط لأنها عندما تتزوج هى الأخرى سيعاشرها جني من شياطين كفر داوود ولن أكون ذلك الأب الذى قد رمى ابنته لرجل المدينة حتى يستريح من عفاريتها ، لا لن تتزوج جميلة وقضي الأمر . هكذا رد على زوجته بداخل عقله بينما عقد لسانه بداخل فمه ، فى حين عاودت بدرية السؤال :

- ما هو سبب رفضك ؟.

هنا تركها ونام غير عابئ بسؤالها وحديثها ، عندما استيقظ فى الصباح عاودت عليه الأمر ، كان قد أفاق من أثر سيجارته ، حاول التملص منها لكنها كادت تستعطفه من أجل الموافقة على تحديد ميعاد لمقابلته ، حتى سمح لها فى النهاية على يوم الغد.

عندما ذهب سعد للعمل كان قلبه قد تسارعت دقاته طيلة الطريق وبمجرد أن جلس على مكتبه حتى شعر أنه سيغشى عليه من الإرهاق، سيصير كوالد امرأته يسلمها لأى رجل ليرتاح من ابنته ، ستكمل مسيرة عائلتها وقرينها ككل نساء قريتها ، قال فى نفسه : آهٍ ياسعد يا مسكين ، كنت فى هدنة سنوات قلائل ، حتى عاود ذلك الهمُّ ثانية ، أين انت أيها الحشيش حتى تصلح بالي وتفكيري . هكذا مرَّ اليوم كالأيام السوالف.

فى الجامعة قابلت جميلة علاء وأعلمته بالميعاد ، كان بالنسبة له أمرًا روتينيًا، حتى يعلم محمد أو غيره أنها صارت له وليس هناك فرصة لردها ثانية .

لم ينم سعد ليلتها ، ظل مع أصدقائه يدخنون حتى ساعات الفجر بعدها سلك طريقه عائدًا لمنزله ، عندها لمح الشيخ ريحان يسير تجاهه كان باسمًا كالعادة ، لم يرد سعد أن يلقيَ السلامَ عليه، كي لا يشم رائحة الحشيش التي تفوح منه، فبادره الشيخ بالسلام، كان متجهًا للمسجد، فقال لسعد : - هيا يا سعد لنذهب لصلاة الفجر ، قبل أن يجيب سعد قال الشيخ بعدما عبس فجأة على الرغم من رسم الابتسامة على فمه :

- أمسك عليك زوجك ، يا سعد أمسك عليك زوجك .

ثم تركه وذهب ليكمل سعد مسيرته جهة منزله ويلقي جسده على فراشه ملاذ آخر الليل .

فى الرابعة عصر اليوم التالى عاد سعد من عمله ليستقبل خاطب ابنته ، كان قد بدأ يومه بسيجارته الأزلية التى سار يداوم عليها أكثر من طعام زوجته ، حضرت ابنته تصطحب علاء فى الخامسة ، عندما جلس أحضرت لهم بدرية عصيرَ برتقال ، بينما أعدت لسعد فنجان

القهوة الذي طلبه ، شرع علاء فى الكلام الذي لم يستمع له سعد ولم يتبين ملامحه من شدة ارتخاء جفونه من أثر المخدر، كان قد شرح علاء مستقبله بعد تخرجه فى الجامعة ، كانت جميلة جالسة جواره بينما وقف أحسنُ خلف مقعد والدته .

بعد فترة تحدث سعد أخيرًا ليقول ما جعل الجميع يبتلعون ألسنتهم :

- جميلة لن تتزوج .

تجهم الجمعُ لذلك، بينما نظر علاء لجميلة وأمها غيرَ مدركٍ ما يقوله والدها، ثم نظر له وقال : - ماذا تقول ؟ لن تتزوج ؟

رد سعد على الفور :- نعم جميلة لن تتزوج .. لأنها ليست عذراء .

وقفت جميلة صارخة وصاحت :- ما الذى تقوله ؟

هنا وقف الجميع سوى سعد ، كانت تلك خطته التى فكر بها ليبعد عنها شيطانها حتى أكمل : - سمعتها سيئة والجميع يعلم ذلك .

صرخت جميلة من هول ما تسمع بينما وقف علاء لا يفهم ما يحدث . عندها تفجر صوت قوى صارخ :

- ما الذى تقوله .. اصمت ابنتي أشرف فتاة على وجه الارض، يلعنك الله .. يلعنك الله يا سعد .. جميلة أشرف البنات .

هكذا صَمَّ صوتَ بدرية الأذانُ، بينما فزع سعدٌ من زوجته التي لم يرها لحظة واحدة بذات الشكل ، بينما استمرت فى صراخها والدعاء عليه :

- يلعنك الله ياسعد ابنتي بريئة من أكاذيبك أيها اللعين .. يلعنك الله . قالتها وسقطت على الأرض وسط صراخ جميلة وأخيها وذهول سعد، بينما غادر علاء المنزل بمجرد سقوط بدرية . ظلت جميلة تحاول إفاقتها، وأخذت تناديها حتى صرخت باكية :- لقد ماتت .. لقد ماتت .

* * * * * *

هكذا انتهت حياة حسنائه ، ظل دامع العينين طيلة الثلاثة أيام التى قضاها هو وولديه بكفر داوود بعد دفن بدرية ، اندهش عندما علم بموت عمتها منذ سنوات ، شعر أن شائعة نساء كفر داوود كانت تقصد موتهن صغيرات وحسناوات، وهو ما حدث لأمها وعمتها وما حدث لها قال فى نفسه : - آهٍ يا بدرية لقد قتلتك بكلماتي ، لقد قتلت قلبك منذ سنوات ، آهٍ يا بدرية لقد ظلمتك ولم يكفني سوى قتلك فى النهاية ، آهٍ أيها الحُسْنُ المجسد ، آهٍ لذلك الثرى لذلك الثرى الذى غطَّاكِ ، كيف السبيل لمسامحتي الآن ؟ كيف السبيل لمسامحتي يا

بدرية ؟ . ظل يناجيها طيلة الليالي وحيداً، لم يعِ ما فعله معها طيلة السنوات الماضية سوى الآن وهو أمام مدفنها .

لم يكن حال جميلة أو أخيها أفضل من سعد، كانا وحيدين طيلة اليوم والليل بدار بدرية ، كانت جميلة تحتضن أخاها، وتحاول إلهاءه بينما لم يدرك بعد فقدان والدته .

وجد سعد قدميه تقودانه إلى مسجد الشيخ الداوودي شيخ الكفر ، كانت عيناه مغرورقتين بالدمع ، لمح بالقرب من الضريح رجلًا زاهي الجلباب، يسير بتوئده بعيدًا عن المسجد ، هنا نادى عليه سعد : - يا شيخ ريحان .. يا شيخ ريحان . لكنه أبدًا لم يلتفت إليه ، وظل يبتعد حتى غاب عن نظره ، كان قد وصل للمسجد فدخله وأكمل بكاءه على بدرية .

عندما عاد ليلًا بعد أسبوع لم يعلم كيف استطاع الوصول لمنزله ، كانت أول ليلة يدخل بها البيت فلا يجد امرأته ، القمر الذى حاول كثيرًا اطفائه ، الآن قد تلاشى تمامًا وغاب عن الأرض والدنيا كلها . كانت جميلة تحمل أخاها ذا التسع سنوات لنومه طيلة الطريق، وبمجرد دخولهما حتى أنامته بغرفتها ، ودخل سعد غرفته وحيدً باكيًا .

الفصل العاشر

انقضى أسبوعان على موت بدرية ، أفاق بعدها سعد من غيبوبة الحشيش الذى تعاطاه بينما بدأ فى الذهاب للعمل ، لم يعد يتناول الإفطار كالسابق ؛ فلم يعد هناك ذلك الملاك الذى كان يمتلكه موجودًا .

اتشحت جميلة بالسواد وذهبت إلى كليتها تاركة أخاها بلا طعام سوى ما يوجد بالثلاجة مسبقًا ، حتى أنها لم توصله إلى مدرسته ، لم تكن تعلم أي شيء عنه وعن دراسته وطعامه ، أما والدها فلم تحدثه منذ وفاة أمها ، كانت تعلم أنه السبب فى ذلك، لقد تحملت أمُّها الكثير، وبمجرد أن قال ذلك الكلام عنها لم تستطع التحمل .

وصلت لكليتها باحثة عن حبيبها المزعوم حتى وجدته ، لم تحاول الاتصال به لحرجها الشديد مما حدث آخر يوم ببيتها . عندما رآها قال على الفور : - ماذا حدث؟

- توفت والدتى .

رد علاء : - البقاء لله .

صمتت قليلًا ثم قالت : - علاء .. بالنسبة لما قاله والدي فإنه بالطبع ليس صحيحًا .

عقد علاء ذراعيه حول صدره وابتسم بتهكم وقال : - وهل ذلك كلام يقوله والدٌ على ابنته إن لم يكن صحيحًا ؟!

تعجبت جميلة من حديثه وقالت : - أتصدق ما قاله ؟

- إن كان قيل من والدك فلا مجال للتكذيب .

قالت جميلة حانقة : - إنك بذلك تتهمني في أخلاقي .

- لست أنا يا جميلة ، والدك هو من قال ، هو من قال أنكِ لستِ شريفة.

قالت نافية : - علاء ذلك الكلام ليس صحيحًا ، يجب أن تعلم ذلك .

فقال بصوت خفيض : - وكيف لي بالتأكد من ذلك ؟

- لا أعلم . قالتها جميلة يائسة .

فقال علاء على الفور : - ليس هناك حل آخر سوى أن أتزوجك وأتأكد أنكِ ما تزالين عذراء .

كان كلامًا جارحًا لم تصدق أنها تسمعه الآن حقًا ، لكنها جاهدت لتقول :

- حسناً فلتذهب إلى والدي و..

قاطعها قائلاً : - لا .. لن أذهب ثانية لأحد .. وسنتزوج اليوم ، لن أتركك حتى تقومي بالعمليات التي تعيد الفتاة كما كانت وإلا فليذهب كلٌ مِنَّا لحاله .

لم تستطع أن تسمع المزيد من ذلك الكلام القبيح فردت على الفور :
- وكيف ذلك ؟

رد علاء : - سنتزوج عُرفيًا .. إن كنتِ صادقة أذهب إلى والدك ونتزوج شرعيًا . ثم صمت . أدركت أنها الآن أمام حبيبها الذى يظن بها سوء الأخلاق بسبب والدها، فيساومها على الزواج العرفى أو ينتهي كل شيء بينهما الآن ، ومن الوارد أن يشي بما سمعه فى بيتها لأحد بالجامعة فتصير شائعة الجامعة الجديدة .

لم يترك لها وقتاً للتفكير حيث باغتها بقوله :

- الآن يا جميلة .. لتعلنى ردك الآن .

هنا أجابت : - حسنًا .

هكذا قالت الكلمة التى انتظرها ، على الفور أخذ يدها وصعدا إحدى المبان البعيدة عن الجامعة .

سألته جميلة : - أين نحن ؟

رد علاء :- إنه بيتنا الآخر لا يوجد به أحد .. اصعدي .

فتح باب الشقة وأضاء نورها ، لم تكن جميلة بحال تستطيع التركيز فيه لتتبين أين هي ، بمجرد أن أغلق الباب حتى احتضنها وشرع فى تقبيلها . ابتعدت عنه على الفور وقالت :

- لا، لقد قلت أننا سنتزوج . نظر بعيدًا كمن يتذكر شيئًا، وقال :

- آه .. نعم .. حسنًا انتظرى . ثم تركها واقفة عند الباب وأخذ يبحث فى كل مكان ويفتح كل الأدراج حتى غاب فى إحدى الغرف ، عندها شعرت جميلة بالخوف وأرادت فتح باب تلك الشقة ومغادرتها لكنها كانت أضعف من التحرك من مكانها بوصة واحدة . هنا عاد يحمل قلمًا ونصف ورقة مقطوعة من أولها كما لو كان كُتِبَ بها شيء تم تمزيقه ليستطيع الكتابة عليها ، جلس على مقعد الصالون أمامهما ووضع الورقة على المائدة وشرع يكتب ورقة زواجه العرفي بها، ثم وقع بِاسمه وطلب منها أن توقع هي الأخرى ، نظرت له قبل أن تتحرك من مكانها وسألته :

- أهكذا فقط ؟ رد قائلًا : - نعم يا حبيبتي .. هيَّا .

هكذا وقعت أسفل الورقة التى لم يكتب بها شيء سوى أنها صارت زوجته بموجب هذه الورقة . احتضنها وخلع عن رأسها حجابها الأسود فانسدل شعرها مسترسلًا على كتفها ، وأمسك يدها وسار بها جهة الغرفة التى أتى بالورقة منها .

هكذا فى لحظة تحطم مستقبلها أمام عينيها برغبتها، كانت مستلقية على ظهرها بينما اقتنص منها شرفها وكرامتها بِاسم الحب ، كان مستلقيًا جوارها فقالت وقد تصلبت عيناها من شدة الشعور بالذنب لما حدث :

- هل تأكدت الآن ؟ رد قائلاً : - مما ؟

قالت : - من أني عذراء ؟

عندها ضحك بشدة وبصوت مرتفع حتى استطاع الحديث بعد برهة وقال :

- بالطبع بالطبع أنتِ سيدة العذارى جميعهن . ثم شرع فى الضحك مرة أخرى حتى صَمَّ أذنيها .

ليلتها عادت منزلها تجرجر قدميها .. لقد تحقق الآن كلام والدها عنها . لكنها كانت بين اللحظة والأخرى تُذَكِّرُ نفسها أنه كان زواجًا، وأنه سيفي بوعده لها وسيتقدم لخطبتها ، كانت قد نسيت حجابها بتلك الشقة فسارت سافرة ، عندما اقتربت من منزلها أتى إليها أخوها الصغير مسرعًا عندما كان يلعب بالشارع أمام المنزل وهويناجيها : - جميلة .. جميلة . وضم ساقها فوضعت إحدى يديها على رأسه وأخذته وصعدا إلى شقتهما . استقبلتهما سعاد أمام باب شقتها وقالت محدثة جميلة :

- يا جميلة لا تتركى أخاك يلعب بالشارع ثانية ، بدرية رحمها الله لم تكن لتتركه يفعل ذلك .

قالت جميلة وهى تستمر فى فتح باب شقتها : - حسنًا .. حسنًا . حتى دخلا.

فى ذلك الوقت كان سعد بإحدى أضرحة المساجد داخل حلقة ذكر . كان مغمض العينين وبالكاد يستطيع ترديد ما يسمعه مع الجميع :

يا ليتنا نرضى بما يعطى لنا

حتى نموت

بينما يبكي داخله بدريةَ، ويطلب الصفح من خالقه . عاد فى الحادية عشر مساءً فوجد البيت قد أظلم ، وليس هناك طعام شهي ينتظره ، ولا زوجة حسناء تستلقي جواره على الفراش ، إنها فقط إحدى الليالي الجديدة المظلمة بلا بدر مضيء .

حينها كانت جميلة لا تزال مستيقظة تبكي أمَّها وحالَها ، لم تعد تستطيع أن تُقَوِّيَ نفسها بوعد علاء لها ، لم تستطع أن تحتضن أخاها الصغير النائم جوارها ، كانت تشعر الآن أنها ستلوثه إن اقتربت منه فلم تعد كالسابق .

* * * * * *

فى اليوم التالي حاولت جميلة الاتصال بعلاء عدة مرات فلم يرد عليها ، حتى رسائلها على موقع التواصل الاجتماعي لم يفتحها ، أخذت تبحث عنه داخل الكلية فلم تجده، وجدت أحد أصدقائه فأخبرها أنه قد سافر فى رحلة نظمتها الكلية وأعلنت عنها منذ أسبوع . فعادت لبيتها دون أن تحضر أي محاضرات بينما أخوها لم يزل يلعب فى الشارع .

استمر ذلك الحال أسبوعًا كاملًا لم تعد تذهب للكلية . استيقظت على أصوات غريبة بالشارع، ففتحت عينيها لتجد أخاها أحسن قد فتح نافذة الغرفة وأخذ يطل منها فوقفت جواره وسألته : - ماذا يحدث يا حسن ؟

فقال بنبرته الطفولية :- إنه عُرس أمل . وأشار جهة منزلها المقابل لمنزلهم .

كان الجميع ينصب السرادق ويعد المقاعد حتى نافذة غرفتها قد وضعوا بها المصابيح الملونة .

قال لها أحسن : - عندما تتزوجين سيفعلون ذلك ؟

شردت جميلة بعد سؤال أخيها ، كان لابد وأن ترد لكن ماذا تقول ؟ هل ستتزوج حقًا بعدما حدث ؟ هل سيأتي علاء مثلما وعدها ؟ تنهدت ثم ردت على أخيها :

- نعم .

فسألها : - وسأظل أرقص مثلما يفعل حمزة أخو أمل ؟!

كان حمزة بعمره تقريبًا لكنها لا تعرفه .. هكذا ظلت طيلة اليوم تتابع ذلك الزفاف من نافذة غرفتها بينما لا تعلم أين ذهب أحسن .

كانت تراه من وقت لآخر بالشارع يلعب مع أقرانه أو يأكل إحدى الشطائر التى يحصل عليها من إحدى جاراتهم . بعدها نامت من فرط تعبها طيلة اليوم فى مراقبة زفاف جارتها ، لم تكن قد أكلت شيئًا منذ أيام ، عندما فتحت عينيها فى الصباح وجدت أخاها أمامها فتعجبت:

- حسن ؟! كان ينظر لها ويبتسم، فتحت عينيها أكثر وقالت :

- حسن، ما بك تبدو مختلفًا ؟

اعتدل أخوها فى جلسته على الفراش بعد أن أيقظها وقال : - إن أم حمزة قد حممتني اليوم مع حمزة .

كانت قد اعتادت عليه جميلة منذ وفاة والدتهما متربًا ؛ أشعث الشعرمن كثرة لعبه بالشارع وعدم الاعتناء به حتى مدرسته لم يعد يذهب إليها .

أكمل أحسن : - لقد قالت لي أنني لم أستحم منذ فترة، لكنني لم أكن أريدها أن تحممني ، أمي فقط من تحممني ، كما أنها حممتني مع حمزة ، لم أكن أريد ذلك ، ظل يضحك عليّ .

لم تعِ جميلة شيئًا مما قاله، كان جلُّ تفكيرها فى علاء ، عندما علمت أن أخاها قد أنهى حديثه قالت : - بعد ذلك يجب أن تستحم أنت بمفردك . ثم تركته لينزل ثانية إلى الشارع ليأكل أى شيء يعطيه له أى أحد،

بينما استمرت فى مراقبة الحساب الخاص بعلاء على موقع التواصل الاجتماعى عندما وجدت بعض الصور الجديدة التى قد نشرها مع زملائه بالرحلة ، لاحظت التصاقه فى جميع الصور بزميلة واحدة . فجأة ازدادت دقات قلبها حينما أخذت تتابع التعليقات على تلك الصور ، كان جميعهم يباركون الارتباط الجديد بين علاء ومها ، وبعضهم قدر أنهما سيخطبان بعد عودتهما . تابعت الردود على تلك التعليقات فوجدت مها تؤكد ارتباطها عاطفيًا بعلاء، بينما هو يعلن حبه لها وجمال تلك الرحلة التي وطدت تلك العلاقة ، بينما يسخر بعضهم من الزميلات اللواتي كن يُفْتَنَّ بعلاء وضاعت أحلامهن ، وردود مها على ذلك بأنه لم يعد متاحًا الآن لأي زميلة عداها . كانت جميع الردود تحمل سخرية لاذعة . شعرت جميلة بصدرها يتألم من شدة خفقان قلبها . فهاهو علاء الذى عاد وأفسد علاقتها بمحمد يغتصب شرفها ليتركها ويرتبط بأخرى . تذكرت ورقة الزواج الذى كتبها حينها لكن أي ورقة ؟! لقد كانت مهترأة وممزقة . وأين هى من الأساس ؟! من الوارد أن تكون قد ضاعت . ثم أي زواج ؟! لم يكن ذلك زواجًا من الأساس .. أي حياة تلك ؟! ارتمت على الفراش لا تستطيع عيناها أن تذرف الدمع ؛ كانت قد أنهت كل قطرة ماء بجسدها : حقًا لم تكن تستطيع التحمل .

عاد سعد من أمسيته منهكًا مغمض العينين، فارتمى على أقرب مقعد استطاع الوصول إليه وغاب فى نومه .

رأى والدته بثوبها الطويل قصير الأكمام وشعرها المغطى معظمه بوشاح صغير، تقف بذات موضعه الآن بينما أضيئت الغرفة كلها، ووقفت أمامها امرأة أخرى فى حين تقول أمه : - لا ترتدي الشاف الواصف ليلًا .. لا تجعلي ابنتك هادية ترتدي الشاف الواصف وهى نائمة .. حماها الله وسِواها ، القرين يفتن بهن فيعاشرهن ، حماهن الله ، فلترتدي الثقيل المغلق ، ستر الله عذارانا .

فتح سعد عينيه ، لم يكن لجميلة قرين سوى جني كفر داوود المترصد ، هكذا فكر سعد بعد تلك الذكرى عن أمه . هنا ذهب إلى غرفة جميلة حيث كانت نائمة جوار أخيها ، أضاء الغرفة ووسط ذهولها، فتح خزانة ملابسها وأخذ يخرج جميع الأثواب ويمزقها لا يعلم الفرق بين ملابس المنزل أو النوم ، أخذ يمزقهم جميعًا ويلقيهم على الأرض ويردد بصوت جنوني مريض :

- لن ترتدي تلك الأثواب بعد الآن .

هكذا اجتاحته حُمى بعيدة عنه منذ زمن ، ارتفعت ضربات قلب جميلة فلم تستطع الصمود بعد ذلك، فاندفعت إلى خزانة ملابسها حيث يقف والدها وأخذت تنتشل منه ملابسها أو ما تبقى منهم وهي تصرخ :

- اترك ملابسي .. اتركنى وشأني .. قاتل أمي .. أنت السبب فى كل ذلك .. أنت السبب فى كل شيء ، أنت من ضيع حياتي ومستقبلي .. اتركني .. بينما ارتمت على ملابسها بالأرض تحتضنها كأنها تستر نفسها وشرفها بهم ، وتحمي نفسها ، بينما أخذت تبكي وتصرخ حتى بُح صوتُها ، كل هذا وأحسن يقف فى زاوية الغرفة يصرخ ويبكي هو الآخر مذعورًا . عندها أسرع سعد بالخروج من الحجرة والذهاب لغرفته بينما ظل طوال الليل يسمع صراخ ابنته .

* * * * * *

ظل سعد مستيقظًا حتى الفجر ، وعندما أذن للصلاة تحامل على نفسه وخرج قاصدًا المسجد ، هناك توضأ وانتظر الإقامة ، كان يشعر أنه بحاجة للصلاة التي هجرها من قبل موت بدرية ، عندما داهمته حمى الحشيش .

أقيمت الصلاة وعندما فرغ المصلون نظر بجانبه باحثًا عن شيخه المسن فلم يجده. اقترب من الإمام الذى أَمَّ الصلاة بهم وسلم عليه وقال : - أين الشيخ ريحان ؟

فقال الإمام على الفور : - الشيخ ريحان رحمه الله .

انتفض قلب سعد وقال : - توفي ؟

فتعجب الرجل أمامه وقال : - ألم تكن تعلم ؟

قال سعد بأسى بالغ : - لا .. رحمه الله ، متى توفي ؟

رد عليه قائلًا : - قبيل عشرين سنة .

قال سعد مُصَحِّحًا :- لا .. لا ، أقصد الشيخ ريحان الذي كان يصلي هنا ويؤم الناس.

فقال الرجل : - نعم أعرف الشيخ ريحان جيدًا لقد توفي منذ سنوات وتم تعييني بالمسجد هنا مكانه .

توقف قلب سعد دقيقة ثم عاود الخفقان بقوة حتى كاد يخترق صدره، بينما شعر بقلبه يتم حرقه بماء مُغلَى صُبَّ فوقه وجاهد ليقول : - ماذا تقول ؟! عندها شعر بيد تتلمس كتفه فنظر وراءه فرأى رجلًا مسنًا يقول له :

- ما لك تسأل عن الشيخ ريحان رحمه الله ؟! إنه مُتَوَفًّى منذ قرابة عشرين عامًا .

شعر بلسانه قد سقط فى حلقه فلم يستطع الحديث ، لقد كان الشيخ ريحان مُتَوَفًّى منذ زواجه ببدرية ، لم يكن بعالمه – آهٍ يا شيخنا !

هكذا خرج سعد فارًا لا يصدق ما يسمع، عندها تذكر أنه كان دائمًا يناديه باسمه فى حين لم يلحظ أنه لم يقل له اسمه قط . تذكر أن آخر كلماته له هي : أمسك عليك زوجك ، لم يره منذ ذلك الحين . - كان طيفًا .. كان يحاول نصيحتي . هكذا أخذ يردد، بينما علا صوته بالشارع وهو يهرول ويقول :

- لم أمسك عليَّ زوجي يا شيخنا .. قتلتُ بدريةَ يا شيخنا .. لا تتركني الآن .. لا تذهب الآن يا شيخنا . تذكر ابتعاده عنه بكفر داوود عند دفن بدرية ، حتى أنه لم يلتفت إليه فأدرك رحيل شيخه الواعظ أو طيفه أو خيالاته .

بينما ظل يردد : - لقد قتلت بدرية يا شيخنا .. قتلت بدرية .

*** * * * * ***

فى الصباح عزمت جميلة على ملاقاة علاء بعد أن علمت أنه قد عاد من رحلته ، عندما فشلت فى الاتصال به لعدم رده على مكالماتها . وجدته فى كافيتريا الجامعة يجلس مع حبيبته الجديدة ، نادت عليه من بُعْدٍ فنظر لها وقام على الفور من موضعه وقال لها : - جميلة كيف حالك ؟

فقالت له : لما لم ترد على مكالماتي ؟ ما الذى أجده على موقع التواصل الاجتماعي ذلك ؟

قال بسخرية : - ماذا ؟!

فردت عليه جميلة : - علاقتك بمها ؟

قال لها وقد وضع يداه فى جيوب بنطاله : - ما لها ؟ إنني أحب مها .

اندهشت من صراحته الوقحة وقالت :

- وأنا ؟

قال علاء بهدوء : - يا جميلة انتهى الأمر .. أنا مرتبط الآن بمها .

قالت مصدومة : - وزواجنا ؟

قاطعها على الفور : - لا .. لا ، انسي تمامًا ذلك الأمر ، أنا نسيته .. يا جميلة أنتِ تعرفين المشاعر تتبدل في يوم وليلة .. أنا أحب الآن مها وكنت أحبك أمس، إنه لأمرٌ طبيعي تمامًا ، فلتبحثي عن حب جديد أو .. لتعودي إلى محمد .

تسارعت دقات قلبها وهى تسمعه وبدأت عيناها تتلألأ بالدموع وقالت:

- مالذى تقوله ؟ كيف تقول ذلك الآن لقد تزوجتني .. لقد .. لقد ، ولم تستطع أن تكمل حتى قال هو :

- يا جميلة هوني الأمر على نفسك ستجدين من يقدر ظروفك تلك ، فقط افتحي قلبك لأحد آخر . هنا جاءت مها وجذبته من يده وقالت له :

- هيا ياعلاء سنتأخر عن المحاضرة .

سارت بطريق عودتها للمنزل لا تعلم ماذا تفعل، لم تصدق كلام محمد عنه ، ظلت سائرة من جامعتها لشارعها ، حينما صارت بالشارع وجدت ضجيجًا وحشدًا من الناس أمام إحدى السيارات وفجأة لمحت طفلًا صغيرًا يقترب منها، وهو يجري يقول : - إنه حسنٌ، أخوكِ . ثم تركها وذهب على الفور فترجم عقلها حينها ما يحدث، إنها حادثة .

أخذت تعدو وتبعد الناس من أمامها حتى وصلت إلى السيارة ، كان أخوها أحسن راقدًا وقد ملأت الدماءُ الأرضَ حول رأسه، وزاغت عيناه الواهنتان، حملت رأسه على حجرها وهي تصرخ تناديه : - حسن .. حسن . فنظر لها بنظراته الطفولية البريئة وقال بوهنٍ : - لا تبكي يا جميلة ، أنا لا أتألم ، سأذهب إلى أمي . جاهد للابتسام وقال :

- هي ستحممني الآن بدلًا من أم حمزة ، سأذهب إليها يا جميلة لتحممني . ثم فارق الحياة .

أخذت تصرخ : - حســــــن حســــــن حتى زلزل صوتها الشارع بأكمله ، فى حين لم يسمعه سعد الذى أخذ يميل يميناً ويساراً فى مكان ما .

يا كلَّ كُلِّي وأهلِي

عند انقطاعى وذلِّي

ما لي سوى الروح خذها

والروح جهد المقلِ

تمت

نبذة عن المؤلفة : نشوى سعيد

صحفية بمجلة المصور بمؤسسة دار الهلال الصحفية
عضو نقابة الصحفيين وعضو الجمعية العمومية
مدير التحرير الفنى لمجلة مبدعو مصر الورقية

نشر لها بعض القصص القصيرة بمجلة الثقافة الجديدة التى تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة منها قصة " ومراية باهتة " و " معى صورته " و " وصل عائداً "ولما توارت عيوب الرداء" وغيرهم

لها مجموعة قصصية تحت النشر بعنوان " كاميرا " – الهيئة العامة لقصور الثقافة - المجموعة القصصية " لقاء المساء "

نشر لها بعض القصص القصيرة بعدة مواقع الكترونية مثل موقع الكتابة منها قصة " تمثال " وقصة " الآن أبكى "

قامت بتأليف بعض روايات - تحت النشر- منها رواية: "ديستوبيا"

تم تكريمها بملتقى المبدعون الدولى بدار الأوبرا المصرية السادس ٢٠١٦والسابع بساقية الصاوى ٢٠١٧

تكريمها بمهرجان كام السينمائى بدار الأوبرا المصرية ٢٠١٦.

تكريمها فى صالون أجيال الدولى ٢ بمكتبة مدينة نصر العامة ٢٠١٧

تكريمها فى بانوراما الأميرية ٢٠١٧.